

**مدينة طرابلس
بمدخليها الغربي والشرقي
في رسائل الى اهل**

إيالة الأندلس

و. لويش سنج و. لويش سنج

ترجمة

و. الهادي الوفقي

جامعة قاريلو. بكفازي

المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان

مدينة طرابلس بمدخلها الغربي والشرقي في رسائل الى اهل

عيسى يوسف الدوي

إسلام الأندلس
و. لورنس شيلنج و. لورنس شيلنج

ترجمة
و. الهادي الوفاة
جامعة قارديونش. بنغازي

المقدمة

أعزائي القراء

تضم صفحات هذا الكتيب ترجمة لمجموعة من الرسائل بعثت بها آستان امريكيان في نهاية العقد الثالث من هذا القرن الى ذويهما ، وكانت الكاتبان على ما يبدو مشغوفتان بسحر منطقة الشمال الافريقي ، اذ زارته لأكثر من مرة ، ويظهر ذلك جليا من المقارنات التي تسردانها احيانا بين منطقة من هنا واخرى من المغرب ، ومره من الجزائر وثالته من تونس وحتى من بعض مناطق الشرق العربي في بعض الاحيان .

كان الاهتمام الأول لصاحبتينا التصوير السينمائي ، الذي تشكل معداته الجزء الاكبر والاكثر أهمية ، من حاجياتهما رغم ما ينجم عن ذلك من مشقة الحمل وعناء السير على المحافظة عليه ، لحساسية المعدات وغلاء الثمن وصعوبة ظروف الانتقال بين مواصلات البحر ، والتنقل بالسيارات عبر طرق كان اكثرها لا يزال دون رصف ، وبين ركوب الأبل في مناطق لا تزال مهددة بغارات المجاهدين من ابناء هذه الارض.

جاء طبع هذه الرسائل في كتاب يحمل عنوان « وصف مدينة طرابلس بمدخلها الشرقي والغربي في رسائل للأهل » بعد ثلاث زيارات قامت بها الى هذا الجزء الذي اكتسب كما توكدان ، حبهما وشغفهما عنه من بقية الاجزاء الاخرى ، واذا كان اهداء هذا الكتيب الى « فرسان ليبيا » من جنود وضباط الفاشست ، فان ترجمته تجيء اهداء الى الفرسان من ابناء اولئك المجاهدين الذين جاء الحديث بذكر الكثير من الخصال الحميدة عنهم ، والذين ظلوا يذكرون النار ليجعلوا من حياة المستعمر حياة ظل الاطمئنان ابعد واغلى ما كان يتمناه فرسان من اهدى الكتاب اليهم ، وهو ما دفعني لأن اقدم هذه الاوراق اليكم خاصة وأنها قد دونت من قبل امرأتين لا علاقة لهما مباشرة بأمر الحرب ، وانهما محابدتان بحكم جنسيتهما .

كانت التسهيلات التي قدمت لهما ، بدون شك ، مفتاح الطريق والأمان ايضا لانجاز الرحلة التي قامت بها ، وهو ما يفسر سر ذلك التعاطف الذي أبديته نحو اخوانهما من الاوروبيين المستعمرين ، أن ما أبديته من ملاحظات حول أهلنا امر اتركه للقارئ الذي اذكره بجدية تلك الاشارات الصادقة ، نحو الكثير من المظاهر الاجتماعية ، ووصف الاسواق ونمط العمارة والمظاهر الجغرافية المتنوعة والكثير من المعلومات التاريخية ، وبالطبع ايضا وصف الازياء والحلى ومظاهر الزينة الاخرى.

أخى القارئ

لقد قصدت الا أعلق على شئ حتى لا اترك أثراً سوى اننى حاولت ان اقدم ترجمة ارجو ان تنال رضاكم ، ومذكراً بأن ما كانت تدعيه (الامبراطورية التي انهارت قبل ان تقوم) حول بسط سيادتها الكاملة والمطلقة ما كان بالقول الصادق ، رغم ان اجدادنا ما كانوا حتى ليحلموا بقوة وفلك عتاد من جاءوا ليجعلوا من ساحلنا ساحلاً رابعاً لهم لقد كان الطريق الى غدامس . . . وبونجيم وهون . . . محفوفاً بالخطر كله في عام ١٩٢٩م . وكانت الطائرات الكثيرة تنقل مئات المصابين في معارك سوكنه وما حولها في نفس السنة ، وكانت الشاحنات المليئة بالجنود والمدافع تحرس طريق الجبل الاخضر الى درنة . . .

شكرى العميق الى الاخ محمد عبدالله زيادة على ضربه اصل الترجمة على الآلة الكاتبة ، وإلى الأخت الكريمة هنية الكاديكي على مراجعتها النص لغويا .

بنغازي

يونيه ١٩٨٠

د . الهادي ابولقمة

قسم الجغرافيا

كلية الآداب

جامعة قاريونس

ظهر هذا الكتاب تحت اسم :

أيام وفرسان طرابلس

وصف لمداخلها الغربى والشرقى

TRIPOLI DAYS AND KNIGHTS PARIS 1930

برقية

نيويورك ١٠ أغسطس

فندق لوتيتيا

—

هـ. لويد بريستون

باريس .

حصلنا على كل التصاريح — نبحر يوم ١٥ على الباخرة « كولومبو » قابلي في

روما يوم ٢٦.

دوروثي

طرابلس في ٦ سبتمبر

أمي الحبيبة

يا لها من حياة . . . لقد رست بنا الباخرة اليوم بعد رحلة أكفهر فيها الجو وصباح
قلق في مالطة ، لقد استأجرنا سيارة طفنا بها أرجاء الجزيرة اللعينة ، أنها أطلال من
العصر الحجري .

كنا قد اتفقنا مع شركة الملاحة على أن تنقل بعض امعتنا من نابولي الى « سيراكوزا »
ولهذا كانت لنا معرفة بسيطة بالقبطان حين وصلنا الى هناك .

وفي احدى المحطات بصقلية حيث تتفرع خطوط السكك الحديدية صعدنا الى
مقصورة قطار كان يجلس فيها أحد المدنيين الذي انتصب واقفا بسرعة معلنا انه يفهم
الانجليزية ، ومن الطريف اننا تبينا أنه الضابط الأول بالسفينة ، اما المتعة الحقيقية فقد
بدأت بمجرد ان أبحرت بنا السفينة من مالطة ، فقد كانت هناك ملايين من الذباب تملأ
قمرتنا ، فأحكمت جلستي على المضجع السفلي وأخذت أضرب السقف في عنف بينما
تساعدني « دوروثي » في طرد الذباب الى الخارج نحو الممر ، وكان عملنا معاً رائعا ،
ولم نتيين مقدار روعته إلا حين أحسنا بشخص طويل القامة في بزة بيضاء يقف بباب
القمرة المقابلة لنا متمسرا في مكانه وقد عقدت الدهشة لسانه ، من مشاهدة استعراض
هذا النشاط الأمريكي في درجة حرارة وصلت الى ١١٠ ف. تقريبا والتي لم تمنعنا رغم
ذلك من أن نستمر في ضرب الذباب ونحن في منتهى المرح ، وأخيراً أقفل الضابط فمه
وباب قمرته .

ولما وصلنا في ذلك الصباح وبينما كنا نقضي وقتا مسليا في إنهاء اجراءات جوازات
السفر أحسست بلمسة على كتفي ، فرفعت عيني لتقابل الوجه البشوش لأول فارس
نلتقي به في طرابلس ، وقد أبلغنا انه جاء من قصر الحاكم ، ولم يتصور أبداً كيف
اوشكنا ان نرتمي عليه معانقين ، فقد تبخرت المتاعب وتسلمنا جوازات سفرنا وتركنا
الجمرك ومعنا آلات التصوير السينمائي وكل شئ الى السيارة الفيات التي كانت تنتظرنا

حين دخلنا الميناء بدت لنا طرابلس ساحرة فهي تمتد في روعة ناصعة البياض تحت
شمس الصباح ، في اطار من أشجار النخيل ومقر الحكومة المهيب المنظر ، ذلك المبنى
الذي شيده الأسبان في عام ١٥١٠م. على أطلال قلعة رومانية ، وقد بنى على حافة البحر
ويشرف على ذلك الجزء من المدينة الذي يسكنه الوطنيون .

وفي الفندق وجدنا أن الضابط اللطيف قد قام بحجز حجرات لنا كما أمر لنا بالافطار

وكان رائعا طول اليوم ، فقدمنا الى سكرتير الحاكم ورئيس الديوان ، ثم اصطحبنا في جولة داخل القصر وبعد ذلك ذهب بنا الى المقهى .
وتناولنا الغداء في « الفينيت » إذ أن مطعم الفندق يظل مغلقا حتى أكتوبر ، وبعد الغداء ترجلنا حتى ميدان ايطاليا ، وفجأة ، رأينا الدكتور نفسه قادماً نحونا ومعه جرو من فصيلة نادرة ! ! وبالطبع كان لقاءً صاخبا فقد كنا نطله داخل البلاد ، بينما كان هو يظن أننا في أمريكا ، وبسرعة اتفقنا على تناول العشاء معا .

هيلين .

طرابلس في ٦ سبتمبر

اهلى الاعزاء

ها نحن أخيرا في طرابلس رغم أن سفينتنا كانت تسير معظم الوقت مائلة تكاد تنقلب على رأسها ، إن طرابلس من أروع الموانئ التي رأيناها في شمال افريقيا ، فهي بالضبط كما يرسم المرء في خياله صورة لأفريقيا ، فالشاطئ منخفض ملى بأشجار النخيل المتمايلة وهي ترتفع وسط كتبان الرمال الفضية كأنها تعلن على الملأ « هنا أفريقيا » وفي بداية الطريق يوجد الحى الذى يسكنه العرب ، ناصع البياض يربض على شبه جزيرة في اطار اخضر من اشجار النخيل الطويلة المتمايلة ، وهنا وهناك تقع العين على مثدنة او على مقام ولى من أولياء الله .

أن أكثر معالم المدينة والشاطئ شدا للانتباه ، هو مقر الحاكم الذى يذكر بأيام الرومان ، لقد كان مقرا لكل الغزاة ومن بينهم حكام روما الحديثة ، ومنذ سنة استضاف بين جدرانها الكثيب حاكم ايطاليا وحاشيته . وبينما كانت سفينتنا تقرب من رصيف الميناء ، انضممنا لخموع الركاب الذين أخذوا يتزاحمون نحو حاجز السفينة ينادون ويلوحون ، وظهرت أمام أعيننا مجموعة من الالوان الصارخة التى لا ترى الا في الشرق ، من شيشة حمراء ذات زر طويل أزرق يتطاير في الهواء الى ثوب يشبه المعطف القصير من الصوف الابيض لا يكاد يخفى ما تحته من السراويل التركية البيضاء او الزرقاء أنه الجرد أو الحولى .

وتجمع السكان الوطنيون لمراقبة دخول سفينة البريد الى الميناء ، وقد تبخرت متاعبنا كلها بوصول ضابط من مقر الحاكم ، وقد ظهرت مجموعة من العرب من حيث لا ندرى أخذوا يرتبون امتعتنا ، كذلك أشر ضابط الجمرك البشوش على حقائبنا بالخروج وسرعان ما وجدنا أنفسنا نسرع نحو سيارة حكومية حملتنا لنستقر في فندق « الجراندي

أوتيل » ، وقد تم كل شيء على ما يرام .

وبالذات من فندق فخيم حقا . . . انه يتكون من طابقين ، به أعمدة طويلة ترتفع من حديقة كبيرة تمتد بمحاذاة طريق طرابلس المطل على البحر ، وجاء صاحب الفندق وكله مرح ورحب بنا وقادنا الى جناح جميل له شرفة خاصة تطل على منظر أخاذ للقصر والمدينة والبحر والواحة .

وكان علينا أن نسرع لنقدم احترامنا لمن في القصر ، خرجنا من الباب الخلفي الى الشارع الرئيسي وهو طريق ذو أروقة تصطف على جانبيه المقاهي المكتظة بالعرب أو من الجنود الايطاليين ، ووصلنا الى البناء الحجري الضخم الرمادي اللون ، ويؤدي الى المدخل الرئيسي سلم ملتو ، ويقف على قمته حارس ضخيم الجسم ، واخذنا نرتقى السلم في ببطء ونحن نتناقش في طريقة تقديم انفسنا دون معرفة باللغة الايطالية ، ولكن لم تظل حيرتنا كثيرا فحين اقتربنا وقف الحارس وقفة انتباه وغمغم شيئا عن « الآنستين الامريكيين » وأومأ لنا أن نتجه الى فناء ترفرف فيه الاعلام ويقف فيه حارس آخر . وهكذا مضينا حتى وصلنا الى مكتب الشخص الذي قابلناه في السفينة ، وتناوبت الاحداث . . فقد قابلنا الرسميين بالديوان واحداً تلو الآخر ، وقد أبدى الجميع اهتماما بخططنا وتحمسوا في ابداء مقترحاتهم ، فأخرجت الخرائط ونوقشت الطرق وكل ترتيبات المبيت والطعام ، وفي وقت لا يكاد يذكر تبلورت الخطط جميعا .

ها قد مضى أكثر من ساعة وانا اكتب هذه الرسالة ، وانا جالسة في شرفة جناحنا على كرسي ككراسي السفينة ان الجو يميل الى البرودة ويدعو الى الاسترخاء والنعاس ، حتى انني أجد نفسي اسبح الى عالم الاحلام على أشعة بيضاء في قارب صغير .

دورتي

طرابلس في ٧ سبتمبر

أسرتي الحبيبة

سأكتب كلمة سريعة عن الليلة الماضية حين ذهبنا الى حفل اقامه المرابطون الذين ينتمون الى جماعة الدراويش التي تقيم الذكر والتي انتشرت في شمال افريقيا .

حوالي الساعة العاشرة بدأنا نتوجه نحو ما يعرف « بالزاوية الكبيرة » حيث جلس مئات من الرجال القرفصاء على امتداد ثلاثة جدران ، بينما جلس حوالي اثنا عشر او أكثر من الاوربيين على جانب الحائط الرابع العتيق ، اما في الوسط فقد وقف ما بين خمسين

الى سبعين من رجال الطريقة يحيطون بثمانية او عشرة رجال ذوى لحى بيضاء وقد ركعوا حول مجمرة فحم ، وكانوا يتوقفون من حين وآخر لتسخين جلود طبولهم ، ويعلموا صوتهم طول الوقت وهم يترنمون بنغمات غريبة رتيبة مع دقات الطبول ، وهذه الرتابة وهذا التكرار بالذات يحدثان تأثيراً مخدراً علينا نحن أيضاً .

وبعد وصولنا بقليل وبإشارة من الإمام بدأ الجميع الترنيم في قوة وهم يدورون ويضربون الارض بأقدامهم ويتمايلون في رقصة بدائية تتمشى مع الترنيم وشيئاً فشيئاً ازدادت سرعة النغم وسرعة الدوران وأخذت تزداد حتى وصلت لدرجة الهوس المطلوبة . وتحت هذا التأثير اخذ الرجال يدورون ويتمايلون الواحد تلو الآخر حتى يسقط أغلبهم ، فلم يبق الا اثنا عشر أو أكثر من المهووسين ، الذين اخذوا يندفعون ويقذفون بأنفسهم نحو زعمائهم الذين أخذوا بدورهم يطعموهم وليمة مكونة من الزجاج المطحون او المسامير المختلفة الاشكال ، وبدلاً من الحلو يعطونهم خنجرا ليتلعوه او ليغمدوا نصله حتى القبض في أى جزء من الجسم يروق للطاعن ، وحوالى منتصف الليل ظهر ولى من أوليائهم يستحث شهيتهم التى ربما تكون قد اكتفت وذلك بمجموعة مختارة من العقارب الحية ، ولكننا غادرنا المكان اذ لم نستطع ان نرى اكثر مما رأينا .

وفي الصباح جاء أحد الأعراب ليحمل لنا آلات التصوير ، وستخمنون لون بشرته اذا عرفتم اننا اسميناها « وعمدناه » راستوس » (هل يمكن تعميم شخص مسلم ؟ ان سواده يلعب وكأنه تحفة رائعة في أسمال بالية ، وقد طفنا المدينة وهو معنا ، نصور كل ما تقع عليه العين ثم رجعنا عن طريق سوق الصاغة ، وهناك جلسنا القرفصاء فوق ارض الحجر القذرة التى لا تزيد مساحتها عن ثمانية أقدام مربعة يحيط بنا جماعة من اليهود ، أخذوا يزايدون ويصرخون ويلوحون بأيديهم وكل يعرض بضاعته ويثنى على حليه وقد قضينا وقتاً ممتعاً واثبت راستوس انه حمال ومترجم لا يقوم بمال ، كذلك اشترينا بعض القطع الفضية القديمة .

دورثي

طرابلس في ٨ سبتمبر

أمي الحبيبة

كم هو رائع ان نكون في هذا الجزء من أفريقيا التابع لاطاليا مرة أخرى ، أن العادات تتغير في هذه المناطق في نهاية الصيف ، فعادة فتناول القهوة في الساعة الخامسة

والنصف في شرفتنا الفسيحة التي تطل على الخليج ونراقب سيل الجمال والحمير المحملة بالبضائع وهي تتجه الى سوق الصباح عبر شارع « الكولت فولبي » أحدث شوارع المدينة مما يجعل المقارنة مثيرة حقاً ... بعد ذلك نأخذ راستوس في هلاهيله، ونذهب الى السوق ومن حسن الحظ ان اثنين من الضباط الذين ساعدانا في العام الماضي وقت كنا داخل البلاد ، موجودان حالياً بطرابلس لقضاء أجازتهما ، وقاما بتقديم كل المساعدات لنا اذ ان منظر فئتين ومعهن آلات التصوير ، يعتبر حدثاً في هذه البقاع ، كذلك استعمل الطبيب كل براعته في اقناع بعض العرب لأخذ بعض الصور لهم ، بل لقد نجح وهو يتكلم العربية بطلاقة مدهشة في اقناع صاحب مطعم صغير ان ينقل كافة ما بالمطعم الى الخارج لنصوره في الشمس . وكانوا يطبخون الكسكس والفلفل الاحمر ورأس العجل وهو ما كان رائعاً للصور الملونة ، وقد صحبنا هو وصديقه الى سوق الجمعة مما تسبب في تعطيل حركة السوق بلا شك ، فقد أخذنا نمتطي الخراف ذات الذبول السمينة ونعثر فوق اعداد لا حصر لها من الجمال الجاثمة .

وحوالى العاشرة اضطررنا شدة الحرارة الى الرجوع الى المقهى لتناول شراباً مرتباً وقد ناولنى الطبيب شراباً ضد حرارة الجو وهو سائل جوز الهند المثلج وعليه نكهة اللوز . ونحن نحب الجلوس في المقهى ، وحيث اننا من بلد متقدم فان طراز الايطاليين الذين يستعمرون ليبيا يثير اكبر اهتمامنا فمثلهم مثل الفرنسيين في بلاد المغرب خاصة ، لهم نظرات بقطعة وحذرة وهو ما لا يرى اطلاقاً في القارة انهم دائماً يرتدون الحلل الانيقة ، والواقع ان لديهم نقوداً اكثر مما لدى امثالهم في وطنهم ... انها عملية مسلية للغاية ، ولكنها شاقة ، لقد سبق لروما ان استعمرت هذا الجزء وهي بالتأكيد تقوم بنفس العمل مرة أخرى ، بأن تحاول إقامة مستعمرة مزدهرة في طرابلس .

وبعد ظهر ذلك اليوم وفي ساعة متأخرة ذهبنا بالسيارة الى الواحات البديعة ونجولنا خلالها والتي تبلغ مساحتها حوالى خمسة وعشرون ميلاً مربعاً، وبها أكثر من خمسة آلاف بئر ، ومائتان وخمسة وثمانون الفا من أشجار النخيل ، وهو ما يعد رقماً قياسياً على الساحل ، وفضلاً عن ذلك يوجد أكثر من مائة ألف من أشجار الفاكهة ، فلا عجب ان يسيل لعابنا ونحن نتنزه في الاسواق .

وتستعمل الثيران ، والحمير، والجمال لاستخراج المياه من الآبار الى الحقول والمزارع ليلاً نهاراً ، ونرى الاشجار من كل نوع ، التوت والزيتون والنخيل وشجيرات الحناء الحناء تنمو من تحتها ، كما يزرع ايضاً الشعير والذرة والحناء والتبغ والبقول والفلفل الاحمر وزهور الجرانيوم ، وتنتج زراعة الطماطم . والبصل والفاصوليا والشمام والبطاطس ، ، ويتوفر المشمش واللوز من ابريل الى يونيو ، ويجنى الخوخ خلال

شهرى يوليو واغسطس ، اما محصول الثين والعنب فمن يوليو حتى سبتمبر بينما يستمر جمع الزيتون والباح من اكتوبر الى ديسمبر ، ويتوفر البرتقال ما بين نوفمبر وابريل ، اما الليمون فموجود طول العام ، فلا عجب ان تسخن روما بالمال والجهد على هذه المستعمرة الخصبة ، اذ من الواضح انه سيعود عليها اخيرا بالربح الوفير .

وبعد ظهر الامس وبينما كنا نسير قرب القلعة ، وقفت بجوارنا مركب قفز منها ضابط السفينة الأول ، وكانت فرحتنا بهذا اللقاء غير المتوقع كبيرة ، فلما دعانا لتناول الشاي على ظهر السفينة ذهبنا معه حيث وجدنا القبطان ، وقد دعانا لتناول الشاي في جناحه ، ولما كان يتوقع نقله قريبا الى الباخرة « غاربالدى » فمن المحتمل ان نلقاه في بنغازى مرة أخرى .

ولما كنا نود مشاهدة « صبراته » فقد فضلنا الذهاب مع السيد « ازالى » في سيارته الفيات ، بالرغم من أن المسافة بالقطار لاتعدو ٧٣ كيلومتراً ، ولكن الطريق البرى ممتاز حتى بلدة « بن قردان » على الحدود الفرنسية ، فلما وصلنا الى « جتور » وهى أول واحة نمر بها ، قمنا بزيارة المدافن التى تحوى رفات الايطاليين الذين قتلوا عام ١٩١٢

وبلغنا « صبراته » حوالى التاسعة والنصف ، واخذنا التصاريح الخاصة بنا وبآلات التصوير ، وعلمنا ان مقر الحاكم كان كالعادة قد اخطروهم هاتفيا عن « الأتستين الامريكيتين » وقد استقبلنا المدير باسمنا .

«وصبراته» واحدة من ثلاث مدن أعطت اسمها لطرابلس وظهرت للوجود كميناء بحرى ينتهى اليه طريق القوافل ، ومعنى الاسم « سوق الحبوب » مما يقطع بأن الرومان القدامى قد زرعوا الحبوب هنا ، برغم وجود مدينة كانت قائمة مكانها قبل دخولهم ، وفي أول الأمر كانت ميناءً صغيراً ثم تحولت الى مستعمرة ثم قام البيزنطيون بتقوية حصنها ، الا أن اضمحلالها بدأ مبكراً فلم تجد الحملة العربية مقاومة تذكر ، وبعد قرن من الزمان تحولت البلدة الى مدينة اشباح وانتقل سوقها الى طرابلس ، ثم أكملت الرياح والرمال دمارها وخرابها .

اما الفسيفساء والمدرج فتستحق الزيارة ، فالاخير يسع عشرة آلاف شخص وما زال في حالة ممتازة بالرغم من الحفريات التى تمت في الممرات السرية تحت الارض . وبعد أن عبرنا المحاجر وصلنا الى الساحة العامة ومعبد الآله « جوبيتر » الافريقى وبه تمثال نصفى هائل للاله ، وعن قرب توجد اطلال معبدين بيزنطيين ، والكثير من شواهد القبور ، وقد قامت السلطات بجمع عدد لا بأس به من القطع الدقيقة من الاعمدة او من أجزاء التماثيل او الادوات والآلات الصغيرة في متحف مغلق ، كذلك

احتفظوا بالارضيات الجميلة المصنوعة من الفسيفساء التي توجد بكثرة هنا وقرب الحمام وذلك تحت طبقة كثيفة من الرمال .

ولما كان النهار قد انتصف تقريبا فقد قررنا ان نذهب بالسيارة الى « زوارة » قرب الحدود الايطالية الفرنسية وان نتناول الغذاء في الطريق . وبعد تناول المشروبات مع المأمور ذهبنا بالسيارة ايضا لمشاهدة كثبان الرمال الهائلة الموجودة بمحاذاة الساحل ، وكانت حرارة الجو فظيعة . وبينما كنا نستريح هبت الرياح فأخذ السائق العربى ينتزع كل شئ تقع عليه العين ، ويدفع بنا نحو السيارة الفيات ، ثم بدأت الرمال تهب كما لو كانت عاصفة ثلجية شديدة ، ولم نكد نقطع من الطريق إلا ربع ميل حتى اضطرت السيارة الى التوقف ، فقام سته من العرب بدفعنا حتى استطعنا انسير من جديد، ولكنها كانت ليضعة اقدام فقط، ثم توقفنا ثانية واصبحنا ضائعين تماما لا نرى اى أثر . واستمرت الرمال تعصف وتهب في قوة حتى لم نعد نرى لأبعد من بضعة اقدام ، ومرة اخرى جاء أصدقاؤنا العرب لنجدتنا ، وتعلق احدهم بحافة السيارة ليدلنا على الطريق ، وقد تعطلنا مرات لا تحصى ولكننا بلغنا « زوارة » اخر الأمر ، مرة بالدفع ومرة بحفر الطريق .

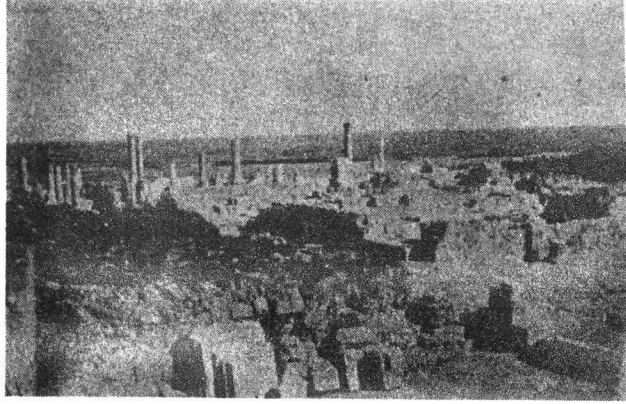
وفجأة وجدنا انفسنا بعيدا في منأى عن الريح، ومع أن الشمس كانت ساطعة الا أن العاصفة تسببت في هبوط درجة الحرارة مما حدا بنا لأن نندثر بالبرانس حتى لا نتجمد في طريق عودتنا الى طرابلس .

وفي الساعة الخامسة حضر بعض الضباط لصحبتنا في جولة لبعض المساجد فزرنا مسجد « القارمانالى » الذى شيد عام ١٧١١م وهو بناء رائع من القرميد المطلى ، اما مسجد « الناقه » نسبة الى أنثى الحمل ، فهو أقدم مساجد طرابلس على الاطلاق ، وكان قد شيد أول الأمر في القرن العاشر ، اما البناء الهزيل الحالى فقد اعيد بناؤه في عام ١٦١١م كذلك زرنا مسجد « قرجى » بمئذنته الجميلة وهو أكثر هذه المساجد زخرفة ، كما أهتمنا بأن نرى قبر القرصان العظيم « دارغود » الذى قتل في حصار مالطة، وتم دفنه بمسجد سمي على اسمه .

بعد ذلك نلنا قسطا من الراحة في احد المقاهى فقد طال تجوالنا في المساجد حتى جفت حلوقنا من كثرة تحمسنا واعجابنا بها ، وقد تعلمنا ان نغمغم بأى كلام اذا لم يسعفنا الحديث بالعربية ، وبعد ان انضم الينا الطبيب وزميله على العشاء تجولنا حول المنتزه والسور الممتد بمحاذاة البحر حتى البوابة الاسبانية . ثم عدنا عن طريق الحى العربى في ضوء القمر وكانت الطرقات تلمع وتبدو بيضاء وسط الظلام الحالك السواد . لقد

كان منظر أخاذا ، وعلى البعد ترى أضواء خافته عند اركان الطرقات واشباح ممتدة
بالبياض تغمغم ١١ ليلتك سعيدة » .

هيابن



صبراته : منظر عام للآثار

طرابلس في ١٠ سبتمبر

اهلى الاعزاء

تبدو طرابلس بقعة جميلة بلا شك ، مختلفة تماما عن المدن الحديثة في أفريقيا التابعة
لفرنسا ، ففى الأخيرة تجد أن مركز الحركة فى الميناء وعلى الارصفة وفى المخازن ، ولكن
حين وصلنا الى هنا اخذت السفينة تتهادى بمحاذاة المدينة حيث بيوت الاثرياء من
المستوطنين وفندق « الجرانند أوتيل » ومقر الحاكم حتى وصلنا الى الميناء الحديد ،
مخلفة وراءها شبه الجزيرة منبسطة على شكل مروحة ، انها حقاً مدينة الاحلام ذات
بياض وضاء .

ومرة أخرى نلاحظ ذلك الامتزاج الغريب بين الشرق والغرب ، عالم داخل عالم . .
فالخلى الاوربى يحتضن البحر ، وقد وضع « الكونت فولبى » اول حاكم لايطاليا هنا
خطط بناء طريق متسع ذا سور رخامى بمحاذاة الشاطئ ، تحده أشجار النخيل وعلى
جانبيه مبان شيدت بعناية تامة مستلهمة فن المعمار المغربى ، واقواس على شكل حدود

الحصان مزينة برسومات دقيقة تمتزج بالمعمار الوطنى المأخوذ من الحى الوطنى الذى لا يبعد أكثر من كيلو متر . وعلى طول الطريق تنتشر الفنادق والبيوت التجارية والشقق وملهى « الميرمار » الذى تم بناؤه اخيراً ، ويقوم كل مبنى في حديقة معتنى بها ، ويوجد هنا ايضا أكثر مقاهى المدينة أبهة حيث يحاول الاوروبيون المنفيون من بلادهم ان ينعموا وسط حضارة قديمة وغريبة عنهم ، بنفس الحياة التى كانوا يعيشونها في وطنهم قبل ان يأتوا محاولين ان يكسبوا عالماً جديداً .

وعندما تحين أوقات الراحة يفد الضباط في حللهم الرسمية البالغة النظافة ليحتسوا القهوة المغربية او أى مشروب آخر أكثر تعقيداً . وطول الوقت ينساب من أمام « الميرمار » سيل المرور يديره رجل الشرطة العربى في براعة ، وحين جئنا لتناول مشروب الشترانو مع أصدقائنا الفرسان تعجبنا من كثافة حركة المرور الغربية ، سيارات فارهة تمرق في شموخ مثيرة للغبار او تراحم سيارة ركوب عامة كبيرة من آخر طراز وكان الجميع يتوقفون ليفسحوا الطريق لفرقة موسيقى نحاسية تتقدم ككتيبة من الجنود الارترين السود في لون الأبنوس ويصل طول قامتهم الى ستة أقدام ولكنهم يبدوون اطول قامة بالشيشة والنظارات الشمسية التى يلبسونها ، ويتبع الكتيبة قائد لها العربى المتعالى وهو يرفل في ثياب حريرية ويمتطى جوادا على ظهره سرج من المخمل الاحمر المطرز بالقصب ويأتى بعدهم حوالي ستة اتباع وقد قبضوا بقوة على زمام البغال المزينة بالشراريب الكثيرة .

وبالطبع وكما هو متبع في البلاد الحارة فان المدينة تنام من الثانية حتى الرابعة ، ثم تدب الحياة فيها عند الخامسة فتتملى اروقة الشارع الرئيسى والمقاهى التى على جانبيه بضباط يقضون اجازاتهم ويبدو الرجال الوطنيون في ثياب صارخة الالوان ، واتخذوا اماكنهم في المقاهى العديدة وقد تعلموا ان يقلدوا حكامهم الاوربيين بالجلوس الى المناضد واحتساء القهوة السوداء القوية .

ومضينا نتمشى مثل بقية القوم حتى جاسنا في احدى المقاهى ، فلما حانت الساعة الخامسة سمعنا بعض المقطوعات من الموسيقى العسكرية تعزفها فرقة « الكارابيرى » وهى في طريقها الى مقر الحاكم لعزف مقطوعات العصر ، ثم انطلق المدفع معلنا حلول الغروب ، فوقف كل رجل وأمرأة وطفل وقفة انتباه اثناء عزف السلام الوطنى وانزل العلم .

اننا تلقى أحسن معاملة من الجميع هنا ، ها قد عدنا للتو من زيارة صباحية لمستر « دود » القنصل البريطانى ، وكنا قد ذكرنا ونحن في ديوان الحكومة اننا قرأنا رسائل

« تولى » واستفسرنا عما اذا كان الانجليز ما يزالون يحتفظون بنفس المكان ، حيث عاش آل « تولى » وقت الطاعون الفظيع في عام ١٧٩٠م وحين علم مستر « دود » باهتمامنا بالموضوع دعانا لمشاهدة منزله الذى كان مقرراً للأمير من أمراء اسرة « القرمانالى » وهذا يفسر سبب وجوده في قلب الحى الوطنى القديم ، وأحسبنا أن التاريخ يقلب لنا صفحاته لنعيش معه الازمنة الغابرة ونحن نمر من أبواب كل منها عبارة عن ثلاثة ابواب ، وهو ما حمى المستعمرين الاجانب خلال حرب « الباشا » والذى قاتل فيها الاخ أخاه ، وقد رأينا في الفناء المظلى بالبحر البشر النفيس ذا المياه الرائقة التى يدين لها الدبلوماسيون بالبقاء أحياءاً .

وبكثير من الفخر والاعتزاز بالتقاليد اخذنا نستمع الى مضيفنا وهو يقص علينا كيف ان هذا القصر الذى كان مقراً لأكثر ملوك طرابلس سلطانا ، ظل مقراً للقنصلية البريطانية لأكثر من قرن من الزمان ، وكيف امكن ان يوجد في قلب افريقيا هذا المنزل الانجليزى ، وقد شاهدنا صورة زيتية للملكة « فكتوريا » بمناسبة يوبيلها ، والمكتب والمنظار الذين استعملهما يوما ما القائد « نلسون » وكذلك البوصلة الصغيرة التى وضعها آل « تولى » في الشرفة ، وكم أحسبنا بحداثة عمرنا لدرجة اننا « كوطن » لا يسعنا الا ان نفخر بقنصلية تستطيع ان تحمى رحالتين شاردين مثلنا .



طرابلس : منظر عام

ونذكر ان امريكا كانت قد حاولت في الماضى نفس الشيء ، ألم تكن أولى مغامراتنا البحرية ، التأديبية هى قصف طرابلس هذه بعينها ؟ ؟ وماذا يهم ان تكون السفينه

« فيلادلفيا » قد اغرقت في هذا الميناء في عام ١٨٠٤م ستبقى لنا تلك المحاولات المكثفة التي جعلت من جمهوريتنا في العالم الحديد عضوا في الاسرة الدولية .

دورثي

طرابلس في ١٤ سبتمبر

عائلي الحبيبة

لقد رجعنا للتو من سوق الجمعة وقد أخذ منا الارهاق كل مأخذ فلا عجب ، إذ صبحونا في الخامسة صباحا وذهبنا لمحاولة التصوير وسط جموع كثيرة من العرب ، وفي مكان ضيق رغم قيام صبي عربي بشوش بحمل آلات التصوير وسط جمهور متزايد من المعجبين .

ويتفرع من الميدان الرئيسي للسوق مجموعة من اثنتي عشرة او أكثر من الساحات المرصوفة ، كل منها يضم نوعاً واحداً من البضاعة ، ففي احداها يتجمع الجزائريون وهم يقطعون ويزينون في تودده لحوم الحيوانات المثلخة بالدماء ، ويضعون رؤوس نفس هذه الحيوانات من حولهم في أوضاع بشعة وعن قرب وفي ساحة اخرى جلست اثنتا عشرة امرأة بدوية غير محجبة يتحدثن امام اكوام هائلة من الفلفل الاخضر والطماطم الاحمر، وحزم هائلة من اوراق الحناء الجافة ، كذلك خصص ميدان بأكمله للخبازين يعرضون فيه ارغفتهم البلدية المغربية بلونها الذهبى وهى مرصوفة فوق منضدة مستطيلة ليختار كل شخص منها ما يروق له .

وخلف كل ذلك يعلو ضجيج حركة السوق ، اذ يمتلىء باعداد لا حصر لها من الجمال الباركة على الارض والحمير الصغيرة ، والنساء الجالسات القرفصاء تحت أى مكان ظليل يجذبهن وهن مشغولات باعداد الكسكسى للرجال عند عودتهم ظهرا من السوق .

أما الطبيب وزميله اللذان اصطحبانا الى السوق ، فهما يجيدان الحديث بالعربية ، فضلا عن أن الثانى قد تربى هنا ويعرف الكثير من الناس وقد ظل اصدقائه يسلمون علينا ثم يقبلون اطراف اناملهم كتحتية لنا وله ويظهرون استعدادهم لما قد نحتاجه من خدمات وينتظرون لكى يقوموا بأى خدمة نطلبها .

والعادات والحضارة في العالم العربى بعكس مفهومنا تماما . . . فبخلاف البدويات من العجائز التى تملأ التجاعيد وجوههن، واللاتى يحشن حول اكوام الفاكهة والخضر،

لم تقع اعيننا على امرأة واحدة ، ولبس الرجال السراويل الفضفاضة المزركشة بالقصب او الفضة او الشرائط وحتى في اشد الايام حرارة فانهم يرتدون القرملة والزبون وهى المصنوعة من الجوخ الزاهى اللون والذى غالبا ما يتعارض تماما مع لون السروال ، ومع كل هذا يلتفون بالحولى الذى هو عبارة عن قطعة مستقيمة من الصوف المنسوج يدويا طولها ستة امتار ، تلتف حول الجسم الثقيل فعلا بأكثر مما ينبغى من ملابس ، على طريقة التوجا الرومانية ، اما ما يبدو أكثر تنافرا ويعتبر النقطة الوحيدة التى تنتهك فيها التقاليد ، فهو ارتداء الجوارب الاوربية واربطتها ، اما السروال فعادة لا يتعدى طول الركبة .

ورغم ان المدينة العربية لها الكثير من الاطوار واللمحات التى تشبه مثيلاتها من مدن اوربا المتحضرة الا انها مع ذلك تحب التودد اليها والتعلق لها لطبيعتها الخاصة ، عكس المدينة الاوربية التى تزهو بمحاسنها وانفتاحها . وعلى المرء ان يكسب طريقة الى ثقة اى شعب غريب قبل ان تفتح له القلوب ، وحتى بعد ذلك فان القليلين فقط هم الذين يستطيعون ان يقتحموا ابواب الشرق ويصلوا لسحرة وغموضه ، وحين ذهبنا لزيارة المسجد الكبير الذى شيده الأمراء « القرماتاليين » فان التصريح الرسمى من قصر الحاكم اتاح لنا مجرد الدخول ، ولكن ما ان خلعنا احذيتنا من تلقاء انفسنا ونحن على عتبة المسجد حتى ظفرنا بابتسامة الامام الذى ارسل تابعا له لاحضار المفاتيح لزيارة مقابر « القرماتاليين » والمدرسة والمثناة ، ولم نر ابدا خارج بلاد المغرب شيئا يمثل جمال وروعة هذا المسجد فالسقف المضاء مصنوع من عوارض خشب الأرز المعطر ومنحوت تحتها يدويا ، وهذه العوارض تتركز على اعمدة منحوتة ، اما الجدران فذات زخارف على الطراز العربى ، لونها سماوى او ذهبى في العادة .

ويؤدى مدخل الفناء الى حجرة مستطيلة جدرانها مطلية بالخير واسفل السقف مباشرة تجد جزءا من الزخارف والنقوش الدقيقة الموجودة بالمسجد ، وتمتلى هذه الحجرة تقريبا بمقابر امراء « القرماتاليين » بعضها مصنوع من الحجارة وواحد فقط من الرخام اما قبر منشىء الأسرة نفسه فمصنوع من المرمر ، وعلى كل مقبرة شاهدا غالبا ما يكون على شكل عمامة الحاج ، مدون عليه منجزات صاحب القبر .

وخلف البهو وعن طريق ممر مطلى بالخير وصلنا الى فناء اصغر غير مزخرف وعلى احد الجوانب يوجد عدد من نافورات المياه للوضوء الذى أمر به محمد المؤمن قبل كل صلاة من صلوات اليوم الخمس ، وعلى جوانب الفناء الاخرى توجد حجرات صغيرة مظلمة تحتوى على حاجيات التلاميذ العرب الذين يطلبون العلم في هذه الجامعة المحمدية الغريبة .

ولم ندخل الا مسجدا واحدا بعد ذلك هو مسجد « قورجى » ويقع قبالة قوس « ماركوس أوريليوس » ومثلته تحفة رائعة من التحف حتى لقد خيل الينا اننا سنجد نفس الروعة والجمال بالداخل ، ولكن لم نجد من ذلك شيئا على الاطلاق ، فلون القرميد الزاهى كان على العكس تماما من الالوان الهادئة الرقية التى كنا قد فرغنا من مشاهدتها في مسجد القرمانيلىن ، فلم نلبث ان القينا نظرة سريعة على المحراب الحديث الطراز وعلى المنبر الرخامى الذى تلقى منه خطبة الجمعة وعلى جانبيه ساعتان فرنسيتا الصنع وقفنا كحارسين .

نحن الآن في المساء وقد جلسنا في شرفة الفندق الهادئة والهواء منعش وقد تمددنا على الكراسى الكبيرة المصنوعة من القماش مثل كراسى السفينة نحتسى مشروبا مرطبا ومن فوقنا يبدو هلال اول الشهر يرنو الينا من فوق قصر « شارل الخامس » المجدد حديثا . وعبر الشارع العريض تبدو الميناء يحوطها على الجانبين وميض الانوار الحمراء والخضراء لبوابة الميناء الخارجى ، وعن بعد يسمع نباح الكلاب الهائمة في الشوارع ، وقرع الدفوف العربية مختلطا بصوت البوق الصادر من ثكنات الجند الوطنيين ، وقرىبا منا يدندن اثنان من الايطاليين ببعض مقطوعات موسيقية او بعض الاغانى العربية .

دورثى

طرابلس في ١٦ سبتمبر

أمى الغالية

لما كان اليوم السبت ، يوم عيد لدى اليهود فقد ارتدوا جميعا أفخر ملابسهم ، والرداء يتكون من قميص يصل الى ثلاثة ارباع طول جلباب النوم وهو ما لا نراه في أفريقيا التابعة لفرنسا ، ولكنهم يستعملون نفس السترات الحمراء الزاهية والطربوش ، وهم يبرزون حمالات الجوارب في وضوح مثلهم في ذلك مثل التونسيين ، كما يلتف حزام حول الجسم بطريقة انيقة كما هى العادة في المغرب ، ولكننا لم نر البرنس حتى الآن ، اما الاسواق فغير واسعة ولكنها مسلية لأنها على أصلها لم تمسها يد المدنية بعد ، وسيقع الايطاليون ولا شك في خطأ كبير ان هم حاولوا اجراء اى تعديل عليها ، لقد تجولنا في سوق « المشير » وهو الشارع الوطنى الموازى « للكورسو » ، عبر مسجد القره مانىلى ، وهو طريق ذو رواق طويل ، وسرعان ما التقطنا صورا للتجار العرب وهم يجلسون القرفصاء امام الرفوف التى صفت عليها الطرايش البيضاء المعروفة بالطاقيّة . وبالطبع ذهبنا الى « حارة اليهود » فدخلناها من تحت برج الساعة التركية واخذنا

نتجول خلال الشارع المعروف « بسوق الترك » وهو خليط غير متجانس من العرب والاوربيين . وتغطي السوق تعريشة تتخللها الشمس فتسقط على انواع البضائع المختلفة ، منسوجات قطنية من انجلترا وحلى فرنسية وكذلك محلات الدخان او مقاهى اليونانيين او الايطاليين ، وقد علمتني التجربة انه يمكن العثور على أى شئ في هذا الشارع ، وعند منتصفه يوجد جامع الباشا الجميل وهو المسجد الرئيسى بطرابلس ، وابوابه منحوتة تحت يدويا ، ومن فتحات الابواب تطلعنا بنظرة سريعة الى الفناء ذى الاعمدة الدقيقة النحت ، اما في نهاية الشارع فقد رأينا صناع العاج ووقفنا نراقبهم وهم ينحتون ، من سن الفيل الكبيرة الآتية من السودان والكنغو اشكالا كمباسم السجائر او الحلى والمراوح ، وعند الاربع عرصات « استدرنا معجبين بالأربعة اعمدة وهى مطلية طلاء كثيفا ، وهى مفترق طرق شهدت حركة مرور القوافل منذ آلاف السنين قبل الميلاد بعد ذلك دلفنا الى طريق القنصلية الايطالية الواسع والذى يوردى الى قوس الروم القديم « والحارة الكبيرة » (حارة اليهود) وقد صورنا القوس الذى شيده ماركوس اوريليوس في عام ١٦٣م ثم بمنا شطر مثذنة مسجد قورجى الرائعة ذات الاضلاع الثمانية والتي أحببناها بمجرد رؤيتها .

وأخيرا وجدنا انفسنا في الشارع الرئيسى للحارة ، وعلى جانبيه المخازن القديمة والطواحين التى تديرها الجمال ، وصناع النسيج والحريز ، كما أن اليهوديات هنا كما في قسطنطينية يرتدين ازهى الملابس الحريرية واغطية الرأس ، فترى مجموعة ألوان متضاربة ، وقد مضينا نتجول وندس رؤوسنا من وقت لآخر لمشاهدة أى فناء اجمل من المعتاد اما النساء فجميلات وقد دعونا الى منازلهن وجلسنا معهن ثم قدمن لنا القهوة والشاى وهن يتفحصن ثيابنا وخصوصا حلينا لأننا كنا نرتدى أساور مغربية وجزائرية . ولكن نحافتنا روعتهن فان الواحدة منهن تزن ثلاثة على الاقل من امثالنا ، وقد أخذن يستفسرن عما اذا كنا مريضتين أو أننا دائما بهذه الدرجة من النحافة ، فكلما زادت بدانة اليهودية ازداد اعجاب زوجها بها ، ومن كثرة بدانتهم تمشى بعضهن بصعوبة وثقل ، ولكنهن جميعا ساحرات جميلات ، ولما عدنا واخذنا نقص على أحملاقنا الضباط ما صادفنا عصر ذلك اليوم ، روعوا لجرأتنا ، ماذا ؟ تذهبان الى الحارة وحيدتين وتدخلان بيوتهن ايضا ؟ « كأن هاته النسوة اللطيفات البدينات يمكن ان تمحونا من الوجود . . . ولكن حين بدأ الظلام يهبط اسرعنا الخطى في الطرقات الملتوية التى كادت تخلو من المارة فلا تلمح العين إلا النساء فوق اسطح المنازل يستنشقن النسيم العليل أو داخل فناء مطلى بلون الزيتون الاخضر وقد ازدحم بأواني الكسكى الكبيرة يتصاعد منها بخار ورائحة الكسكى ، ولكننا لم نملكأ أكثر من ذلك فليس هناك أسوء من شارع

مظلم في الشرق قبل ظهور القمر.

وكنا قد وجهنا الدعوة لياور الحاكم لتناول العشاء بالرغم من أننا لم نتسلم منه ردا فقد أسرعنا بالعودة ، وفي الطريق توقفنا عند أحد المقاهي لعلنا نقابله هناك ، ولكننا لم نجد له أى أثر ، فرجعنا واستبدلنا ثيابنا ثم نزلنا حوالى التاسعة وقالت دورثى « لنذهب مباشرة الى قاعة الاكل » ولكنى قلت لا ، لنذهب اولاً الى الشرفة لبعض الوقت . وهناك وجدنا الياور وقد أكتسى صدره بطبقات وطبقات من الميداليات والوسمة الذهبية ووضع وشاحاً هائلاً أزرق اللون يلتف حول كتفه ، ويحمل سيفاً طويلاً تتدلى منه شراية فضية كبيرة ، والحق ان منظره كان جذاباً ، وعلمنا بعد ذلك أنهم يحتفلون بعيد ميلاد احدهم ، لقد عاش هذا الرجل في البلاد اكثر من اربع سنوات وقد اخبرنا السكرتير العام انه لهذا يعرف طرابلس اكثر مما يعرفها اى ضابط آخر ، وبعد تناول العشاء في الشرفة ، دعانا لرحلة بالسيارة حول طرابلس في ضوء القمر ، وكان منظر الخليج أخاذاً وفي منتهى البهاء ، صفا وراء صف من الاضواء المتألثة .

أن الجو حار جداً الليلة رغم اننى قلت ليلة الأمس ان حجرتنا كانت باردة ، وها هي دورثى تنظر الى مقياس الحرارة وتقول « نعم انها انخفضت الى درجة ٩٨ فهرنهايت والغريب في الامر اننا لم نر في ذلك ما يضحك الا اليوم .

هيلين

طرابلس في ١٨ سبتمبر

ذهبنا صباح اليوم الى السوق لتجربة الاحذية التى اوصينا عليها لرحلتنا بالقوافل الى واحة غدامس ، واثناء رجوعنا أخطأنا الطريق فوجدنا أنفسنا في سوق الشراريب والاحزمة وكلمة « طربوش » هى الاسم الحقيقى « للفرز Fiz » ، وقد أخطأت مرة واحدة حين أسميت ذلك الشيء الذى يبدو كزجاجة الصودا « بالفرز الاحمر » ولكنى لم أعد لهذا الخطأ مرة أخرى لأن « سعيد » تحول نحوى مستاء وهو يقول « آنستى ، هل لأنك ترتدين ملابسك من باريس يقال انك تلبسين باريس ؟ » ولما كان « الفرز » يستعمل في صنع الكثير من الشراريب فقد أطلقنا نحن المسيحيين الاسم الخطأ على غطاء الرأس لدى المسلمين .

وفي أول الأمر كنا نظن الفرز هو « الغز » ولكن يبدو ان هذا ايضا كان خطأ كبيراً ، فهو ان كان طويلاً ضيقاً كالذى يرتديه المصريون فاسمه « طربوش » ، اما اذا كان من القطن الابيض ، كالذى يلبسه العرب في الصيف ، فهو طاقية .

وعند الظهر بدأت رياح الجنوب تهب ولما نظرت الى مقياس الحرارة المعلق خارج نافذتي ، كالنصيحة المكتوبة في تعليمات وارشادات مكتب واشنطن للارصاد ، وجدت درجة الحرارة ١١٣ درجة لهذا لم نشعر بأية رغبة في التجول في الخارج وفضلنا ان نمضى الوقت في شرفتنا ونحن نقرأ « قطار الشرق » تأليف « دوس باسوس » ، ووصفه للبراغيث مدهش للدرجة ان كلتيهما احسستا برغبة في الهرش رغم الحمام الذى أخذناه بعد عودتنا من السوق .

دورثي

ملحوظة :

إن هيلين تناديني ، وقد وجدتتها ترقد وفوق رأسها ضمادات باردة لتخفف من درجة حرارتها ، لقد حسبت انه سيغمى عليها ، ولكنها بدلا من ذلك أخذت تقول « عزيزتي لقد جال بخاطري الآن اسم لكتابنا دعينا نسميه « أيام وفرسان طرابلس » ثم نهديه الى فرسان ليبيا كأنما كنا في حاجة لقيام زوبعة رمال او لصداع شديد لنصل الى هذه الفكرة ولكن اليست فكرة بارعة حقاً ؟ ؟ .

طرابلس في ١٩ سبتمبر

عائلي الحبيبة

لقد رجعنا الآن من التسكع في الحى الوطنى ، ان هذه الاسواق فريدة لا شبيه لها . . ففى دمشق نجد الاسواق عبارة عن ازقة قدرة مكشوفة إلا الشارع المسمى « المستقيم » فهو مسقف بالصفيح التى أخطأ شخص ما فتصور انها تقلل من درجة الحرارة ، وانا أصفه بالضيق تجاوزا ولكن الواقع اننا عبرنا بعض ازقته راكبين عربة ، بينما الخوارى في القدس ضيقة لا تسمح بمرور عربات ، ويخفف من شدة الضوء بعض الاشجار التى التى بها بلا نظام من سقف لسقف مقابل ، وينصح مكتب « كوك » للسياحة السائح بالذهاب الى القاهرة حيث الشوارع واسعة ، وعلى جانبيها محلات عصرية وواجهات تعرض فيها البضائع محل الدكاكين .

اما مدينتى الجزائر وقسطنطينه فهما فريدتان بطرقهما المتعامدة ، ولازالت أزقتها ضيقة ذات درجات لم تفسدهما يد التجديد بعد ، وعلى جانبي الزقاق تجد منازل بلا نوافذ وامام كل بيت دكان مكشوف ذو جزء علوى بارز ، وفيما عدا القسطنطينية وتونس وفاس فلم أر حيا مسقوفا بأكملة وبه مجموعة متداخلة من الازقة الضيقة ،

ولكن طرابلس تمتاز عنها جميعا . . فبينما أشعر وأنا في قسطنطينية اننى داخل محل كبير لعرض البضائع على منضاضة مستقلة فاننى في طرابلس لم يغب عنى للحظة واحدة اننى انما التجول في شوارع ضيقة بمدينة عربية لم تفسد بالتجديد ، صحيح ان هذه الازقة مسقفة ببعض الصفيح ولكن الحوارى الضيقة التى لا يزيد اتساعها عن اثنى عشر قدما فما تزال كما هى ، والواقع ان السياح غير معروفين هنا فقد تجولنا لعدة ايام لم نسمع خلالها إلا اللغة العربية .

ولكل حرفة سوق مغطى خاص بها والحجرات الصغيرة التى تستخدم كالدكاكين لا تزيد مساحتها عما يتيح لصاحبها وواحد أو اثنين من الزبائن ليتحركوا داخلها ، والبضائع لا تعرض ابدأ ولكن تطوى وترص في أكوام فوق ارفف تغطى ثلثه من جوانب المكان من الارض حتى السقف ، وما لا يمكن صفه على ارفف يدلى بها قضبان معلقة في السقف بنفس الطريقة التى يعلق بها لحم الخنزير في اماكن نجفيفه وتقديده .

ولكوننا الاميركيتين الوحيدتين بالبلدة ، فقد اكسبنا ذلك ميزة واضحة فسيرتنا يمكن تشبيهها بموكب قائد منتصر ، فحيثما ذهبنا كنا نقابل بالحنفاة البالغة من الرجال الوجهاء يحيوننا بالتحية العربية البالغة الاكرام ثم بالالاحاح علينا بالدعوة لتناول « قدح واحد من القهوة » ومما لاشك فيه ان امعائنا قد تشبعت بذلك المشروب الأسود الثقيل الذى استهلكنا منه بضعة اقداح في كل مرة كنا نمر فيها بهذه الاسواق .

واحيانا كنا نتجول في الاقسام التى تبيع حاجات النساء فراقب تلك الاشكال الغريبة التى تبدو كالاشباح، وهى منكبة على اختيار زوج احذية جديد مزركش او لشراء جهاز عروس لاحدى الفتيات ، او لشراء عباءة لأنفسهن ذلك الرداء الذى يغطى الجسم كله .

وفي يوم آخر قادتنا أقدامنا الى حى يجلس فيه الرجال والصبيان متربعين فوق سجاجيد نادرة وهم يطرزون من الصباح حتى المساء تلك السترات المطرزة المبهرجة لوجهاء العرب . . وهكذا كنا نكتشف الجديد دائما ، ففي احدى المرات وقفنا على مزاد تجدد فيه الكل مهتم بأن يبيع آخر ما لديه من ملابس الشتاء وكل يضع آماله فىنا نحن لبييعنا ما عنده .

وفي المدن الساحلية التابعة لفرنسا والتى نعرفها جيدا كانت هناك دائما طرق عديدة تصل عن طريقها الى حى المدينة الوطنى ، ولكن الامر مختلف هنا ، فالشارع الوحيد فى الحى الايطالى يودى الى سوق الترك عبر مقر الحكومة من تحت البوابة المسقفة ، وسوق الترك سوق عظيم حيث يلتقى الشرق والغرب فى اختلاط غريب ، وهو مغطى بتعريشة ومشربيات

وقد جددت هذه الاسواق باضافة الواجهات والمناضد المغطاه بالزجاج لعرض البضائع اما الزبائن أنفسهم فهم ايضا خليط من كل الحضارات مثلهم مثل الشارع نفسه . . فهم من كل لون وجنس ففيهم المتألق الحضري الذى يرتدى الزى الاوربى ، والاشقر ذو العيون الزرقاء القادم من الجبل او الاسمر في لون الشيكولاته القادم من فزان ، كلهم جنباً الى جنب مع رجل البادية القادم من قلب الصحراء يضم حزامه حول جسده . . وهؤلاء وهؤلاء يبحثون وسط هذا الخليط العجيب من البضائع عن المنسوجات القطنية القادمة من « مانشستر » والبضائع الوطنية ، عما يروق لهم .

وحين خرجنا من سوق الترك بحواريه الضيقة المتداخلة المسقفة ، وصلنا الى ميدان صغير تحيط به المقاهى الصغيرة وكان هذا هو الحى الوطنى الحقيقى الذى نبحث عنه ، فسررنا لذلك ، فالشوارع شيقه وعلى جوانبها صفوف لا نهاية لها من بيوت الطين ذات طابق واحد وسقف مسطح وخلف البيت أشجار النخيل المتمايلة . . تماما نفس الصور التى اتذكرها من كتاب الجغرافيا المدرسى ، وفي نهايته سوق تجار العاج وعند احدى المنحنيات يوجد سوق الخبازين وقد سال لعابنا ونحن نمر امام صفوف الافران المكشوفة في الحارة ، يقف امامها الخبازون السود يتسمون وهم مشغولون بتقليب ارغفة الخبز البلدى .

وفي ركن آخر عثرنا مصادفة في ميدان صغير مكشوف على اطلال قوس « ماركوس أويليوس » الباقي من القرن الثانى ويرتفع وسط الميدان ، ولقد كان هذا القوس يوما ما أهم معالم المدينة الرومانية « أويا » ومنذ سنوات قليلة مضت استخدمت قبة الرخامية سقفا لمسرح وطنى ، ولكن كان من أول قرارات ايطاليا ازالة هذا المسرح وحفره واستكشاف ما تحت القوس الذى يرتفع خمسة عشر قدما تحت مستوى الطريق الحالى ، وذلك في محاولة لانقاذ ما بقى منه لاعادة بنائه .

وعلى مسافة من القوس تقع « الحارة » وقد اكتشفناها اول مرة في احد الاعياد ، اذ يرتدى الجميع ابيض ملابسهم يأخذون في الطواف بالشوارع ، فالشابات الحسنات ترتدين الملابس الحريرية المطرزة بالقصب ويتسمن لنا حين توقفنا معجبات باساورهن الفضية والحلى الذهبية ، وقد دعينا اكثر من مرة لدخول صحن الدار البديع المرصوف وذلك لمشاركتهن قدها شاي بالنعناع بينما تجمعت الامهات والفتيات في حماس حولنا يتحسسن ثيابنا ويبدن اعجابهن بجليتنا التى احضرناها من المغرب العربى .

ويهود طرابلس يحملون شبها كبيرا بيهود الجيتو GETO في امريكا فالرجال يرتدون ملابس ليست على مقاسهم ، والاطفال في اسمال بالية ، وبالعكس فان الشابات

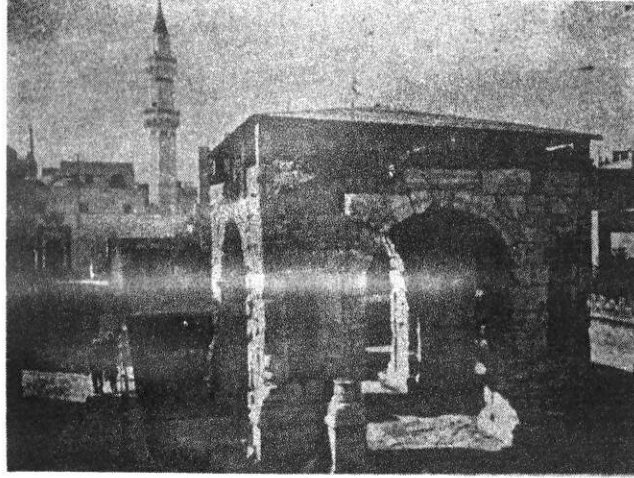
جماليات يلبس الملابس الزاهية ، وحين وقعت انظارنا عليهن لأول مرة كن يلبس الزى الوطنى ، ولست اعرف إلا مكانا واحدا فقط احتفظ فيه بهذا الزى الوطنى وهو قسطنطينية بالجرائر ، ويتكون هذا الزى من ثوب حريرى طويل مطرز بالقصب يضم عند الوسط بمشد من الفضة او الذهب او بحزام من المخمل المطرز باسلاك الفضة او الذهب ويطرح فوق الثوب شال من الحرير غالبا ما يكون ابيض اللون ذا حاشية كبيرة جميلة التطريز ، اما غطاء الرأس فاكثرا يثير الانتباه ، فالشعر يفرق من الوسط ويمشط نحو الخلف حيث يضم بشريط من الذهب وقطع النقود ويثبت هذا عند أعلى الرأس ثم ينزل تحت الذقن ، وتوضع قلنسوة صغيرة مضحكة عند مؤخرة الرأس ماثلة نحو احدى الاذنين وهى أيضا مطرزة بأسلاك الذهب أو الفضة وفي سابق الزمان كانت هذه القلنسوة ترتفع لبضعة بوصات ولكن بمرور الزمن بدأت تصغر وتنكمش ، وفي حالة ارتدائها فانها تلف بشبكة او وشاح من الشيفون بنفس لون الثوب ينتهى بحاشية من القصب عرضها بوصتين او ثلاثة .

واذا كان التغيير ضروريا للحياة فحياتنا مليئة به ، فحين رجعنا اليوم من السوق ، وجدنا اربعة من اصدقائنا الفرسان ينتظروننا في الشرفة لأخذنا في نزهة بحرية في الميناء وكان قاربهم ذو الشراع المثلث البنى اللون مزينا تكريما لنا ، وقد فرشت ارض القارب بالسجاد القيروانى ورصت المقاعد والوسائد العربية عند مقدمة القارب حتى تخفف من اصطدام القارب بحاجز الامواج حيث هبطنا لتناول الشاي ، وقد اخذ القارب ينزل في يسر وسهولة فوق البحر الهادى ، مارا بمقر الحكومة وقصر الأمير والمطار الجديد وفوق المقبرة البحرية حيث اغرقت الباخرة الاميركية « فيلادلفيا » ، حتى وصلنا لمداخل الميناء ، واخذ فرساننا الاربعة بأيدينا فأنزلونا الى الشاطئ حيث جلسنا فوق السجاد والوسائد ثم تجمعوا في حمية ونشاط حول الموقد العربى والغلاية النحاسية يحاولون في حذر ايقاد النار بثلاثة عيدان من الكبريت هى كل ما استطاعوا ابقائه جافا ، وقد أمضينا وقتا جميلا ونحن نمرح ونشرب الشاي في أقداح زجاجية مع الفول السودانى ، ولأول مرة نذوق « الحلاوة العسلية » وهى حلوى مصنوعة من معجون الجوز وعسل النحل .

وفجأة مع غروب الشمس بدأت الرياح تهدأ وبدأ التفكير في الرجوع لتناول العشاء ، ولكن هبوط سرعة الرياح جعلت رحلة الرجوع أطول ، وهى رحلة سنظل نذكرها طويلا ، وباقتراب اليوم من نهايته ومع الغروب بدأت السحب تساقب بعضها فوق المدينة واخذ لون البحر يتغير بالتدرج ، كما اخذ عالم الضياء يتلاشى وبدأت الاضواء المتألئة تختفى واحدة بعد الاخرى وحين ظهر القمر فوق الخليج اخذت ايطاليا الشابة التى

ولدت على أرض افريقيا تغنى في حنو ورقق لحنا عربيا للشمس وهي تغيب والليل وهو
يرخى سدوله .

دورثي



طرابلس : قوس ماركوس اوروليوس

طرابلس في ٢٠ سبتمبر

لقد عدنا للتو من التجول خلال سوق الخبز القديم وهو في نهاية ميدان إيطاليا على
طريق القوافل الآتية الى طرابلس ، وبعد البحث والتقصي في كل مكان عن « النخلات
الثلاث » المشهورة اكتشفنا ان فندقنا مشيد فوق الموقع التاريخي المسمى « نهاية الاثر ».

وسوق الخبز مليء بانواع الخبز المرصوص بعضه فوق بعض وقد صورنا فيلما
طويلا له ، ثم تمشيننا في السوق الايطالي وهو مبنى جديد مليء بكل الوان الفاكهة والخضر ،
ونحن أهل الشمال خاصة نعشق ألوان البطيخ المستطيل الرفيع وكذلك الرمان ، واثناء
رجوعنا مررنا بصقوف من علب طلاء الاحذية حتى وصلنا الى سوق « الرشيد » وكنا
نتقدم في بطء لاضطرارنا في مرات كثيرة للقفز بعيدا كل ما مر بعض العرب يسحبون
جماهم المقلبة بالبضائع ويحذروننا قائلين « بالك » .

ثم مررنا بصائغي الفضة ووقفنا ساعات نساومهم على شراء بعض الحلى ، وقد أخذنا

نظل برووسنا في كل الدكاكين الصغيرة كما شربنا أطنانا من القهوة ، وبالطبع عثرنا في نهاية الأمر على عدد من الحلى الرائعة وهى مختلفة كليا عن حلى مصر وبلدان افريقيا الفرنسية ويصل عرض بعضها الى ستة بوصات محفور عليها رسومات قديمة وصناعة الفضة هنا افضل منها في المستعمرات الاخرى وان افترقت لمهارة الصنعة ، والخللخيل ثقيلة الوزن جدا ويعوزها الحس الفنى المرهف ، ولكن الخواتم ممتعة خصوصا المربعة الشكل ، والخواتم عموما بها جزء بارز في الوسط ورأس مدبب مرتفع يمكن نزعه وآيلاج قطعة قطن مشبعة بالعطر في التجويف ، كذلك كان هناك نوع آخر من الحلى البسيطة الغريبة الشكل فهى عبارة عن طوق محفور عليه رسومات بسيطة وبها مشبك وعروة والكل مطبى بالذهب .

وقد عثرنا على سلسلة من الفضة ترجع للقرن السابع عشر ذات عقد دقيقة متناهية الصغر قابلة للطوى ولها مشبك يتزلق في منتصفها وقد استعملت اصلا لضم الاكمام الفضاضة اثناء العمل ، ومن الغريب اننا لا نجد الا هذا الطراز القديم ، فاما ان العربى قد غير شكل ثوبه واتساع اكمامه او انه اصبح اقل عملا ، وهو ما اظنه مستحيلا .

وقد تناولنا الطعام مع الطيب وزميليه « في مطعم » « روما » ثم عدنا جميعا لتناول بعض المشروبات في الشرفة على ضوء القمر ، وفي الصباح حزمنا امتعتنا تمهيدا للسفر الى داخل البلاد في الثالثة صباحا وحتى الآن لم نرتد إلا أخف الملابس وقد تغير لون بشرتنا .

هيلين

غريان في ٢٣ سبتمبر

أهلى الاعزاء

اخيرا وبعد تعطيل ثلاثة اسابيع تقريبا ، سافرنا هذا الصباح ، ولعل ما يبدأ بداية سيئة تكون نهايته حسنة فما زلنا نسمع الشائعات عن وجود قطاع الطرق ، واطن انه يحسن بنا ان نشكر الحكومة على اهتمامها بسلامتنا بدلا من الحق بسبب هذا التعطيل .

لقد استيقظنا مع شروق الشمس فتناولنا القهوة في الشرفة ونحن نتعجل قدوم السيارة ، وكالعادة فقد قضينا جزءاً من الوقت لحزم حقائبنا ، ومع أننا حاولنا أنقاص امتعتنا الى حقيبة ملابس واحدة لكل منا ، مع سلة الافلام وآلات التصوير وصندوق به أدوات المائدة والمعاطف والخوذات ، وفي نهاية الامر نجحنا في حشر كل شيء ، وتلفحنا بأوشحتنا وانطلقنا عبر بوابة العريضة ، ومنها الى الطريق الذى كان حتى العام الماضى فقط

جزءاً من الصحراء .

ولا يزال هناك على جانبي الطريق ، بعض الاسلاك الشائكة وهي الشيء الوحيد الظاهر الذي يذكر بأنه منذ اثني عشر عاما كانت اسوار المدينة هي حدود الامان للأوروبيين وحتى خلال رحلتنا الأولى منذ اثني عشر شهرا فقط ، حين ذهبنا بصحبة مرافقين كانا مدججين بالبنادق ، اما الآن فنحن نمضي بمفردنا مع السائق ولا اثر لبندقية او سلاح .

وفي العام الماضي كانت الاسلاك الشائكة الصدئة تتزع صوف قطعان الغنم على طول الطريق كلما حاولت ان تقضم ما يسد رمقها من شجيرات الحلفاء القليلة ، اما اليوم فقد مررنا ببيوت صغيرة جميلة وحقول محاطة بالاسوار مزروعة بعناية بأشجار التين او نجد حديقة رويت بماء البئر المحاط بأشجار النخيل والتي اجبرت الحكومة كل مستوطن ان يقوم بحفره خلال الستين الاوليتين لاستيطانه .

وسارت بنا السيارة نحو الداخل لمسافة خمسة وسبعين كيلو متراً حتى وصلنا الى جبل « غريان » وهو عبارة عن كتلة هائلة من الحجر الجيري الذي تعرض لعوامل التعرية فأصبحت ممراته وعره متعرجة ، وبرزت كتلته واضحة جليلة تحت قبة السماء الزرقاء الصافية ، وقد تركت هيئته فينا انطباعاً بأننا كمن يقف امام مسرح هائل . وهذه الجبال نموذج للجبال الصحراوية ، وهي وان كانت أقل في جمالها وألوانها من ارضنا الجافة ، الا انها متشابهان ، وحين اقتربت بنا السيارة بدت امامنا الوديان الشديدة الانحدار على شكل حرف سبعة وهي وديان سبق ان نحتت من القمم الاصلية الشاهقة متحولة الى وديان بين تلك القمم التي لم تترك ورائها ما يدل على نهايتها الا تلك النماذج المخروطية الشكل ، فلا عجب ان اختار المصريون القدماء شكل الهرم كأكثر آثارهم صلابة وبقاء ، فأينما نظرنا الى سفح الجبل لا يبدو سوى هذا المظهر .

وبالنسبة لي ولهيلين ، فان شق طريق في الجبل يبدو لنا كسلسلة من المعجزات ، فتمي اقل من نصف ساعة منذ ان تركنا السهل ، نجحت سيارتنا الفيات المتهالكة في الوصول الى القمة في سلسلة من المنحنيات الشديدة الانحدار وفي اتجاهات مضادة . ولكننا نحملنا ذلك في صمت وألم ، ثم لم نعد نتعلق بجوانب السيارة كلما سارت على شفا منحناء شديدة الدوران بغير حواجز فلا يبقى بينها وبين الهاوية الا قيد انملة . فكانت قلوبنا تقفز الى حلقونا وسط الامتعة والشماسي والخوذات تتدحرج من اماكنها ولم تستقر مكانها الا حين استرخينا واستمتعنا بوقتنا في النصف الساعة الاخيرة ونحن نعبّر هضبة غريان وهي مكان مريح ولكنه مهجور اذ توجد به بعض اشجار التين والزيتون المتشابكة والتي يرجع تاريخ اكر اشجار الزيتون بها الى عهد الرومان .

وحين دققنا النظر اكتشفنا ان كل شجرة تقريبا كانت علامة على وجود مدخل مسكن تحت الارض ، وقد اخبرنا مرافقنا انها كانت مأوى لاهل الكهوف كما قال ان جبال طرابلس ظلت آخر معاقل الوطنيين في حربهم ضد الايطاليين.

ومع هذا فالخضارة بالمقياس الغربى قد بدأت تدخل هذا الركن من العالم ، ففي العام الماضى تناولنا العشاء مع الدكتور « ماشيا » بشرفة « المركز الحربى » ثم قضينا الليلة بمدرسة مكونة من طابق واحد وقام على حراستنا اثنان من الجند بحراهم الطويلة .

ولما كان الموسم السياحى لم يبدأ بعد فقد جلسنا الى واحدة من مائدتى المطعم الوحيد بالبلدة ، اما المائدة الاخرى فقد جلس اليها ثلاثة من الضباط المسرحين وقد أكتروا من شرب البيرة ، فاسترخوا بفك ازرار معاطفهم ووضع الشيشة ذات الزر الازرق على مؤخرة رؤوسهم في وضع أنيق يظهر جمال شعورهم ، ولعدم تعودهم على الشرب فقد صعدت الخمر الى رؤوسهم فأخذنا نستمع الى الموسيقى والاغانى المتنوعة والقصائد العربية فكانت مقارنة غريبة بالنسبة للكرياتنا في ليلالى طرابلس المقمرة .

وبعد القيلولة اخذ مرافقنا يستعمل كل عبقريته وبراعته في البحث عن طريق وسط الكهوف ، وكمن من مرة انزلقنا وتعثرنا اثناء التصوير والبحث عن الحلوى ، وقد وجدنا أبوابا خشبية بعضها مكون من بايين او من ثلاثة ابواب تؤدي الى انفاق متعرجة منحدرة الى ثلاثة او اربعة أقدام من مستوى الارض وهى تقود الى حفرة مستديرة بجوانبها فتحات على شكل قرص عسل النحل وكل فتحة تؤدي الى مدخل مأوى خاص بكل عائلة .

وقد ذكرنا الضوء الخافت بأحد الايام في العام الماضى حين راقبنا غروب الشمس من مقر الحكومة . فهجرنا سيارتنا القيات وقبعنا في وضع خطر فوق صخرة من الصخور تطل على احد طرق القوافل وتشرف على منظر الجبل كله مع السهل والممر الضيق فكان المرء يطل على ابواب الجنة الوردية نفسها ، وإذا اهتم العالم بليبيا فسيكون « غريان » شأن ومستقبل مرموق فان قربها من الساحل ، وعظمة موقعها جديران بالجدد .

دورثى

نالوت فى ٢٤ سبتمبر

أمرنى الحبيبة

لكم تتغير عادات المرء . . فحسب خططنا بدأنا رحلتنا الى « جادو » في الخامسة صباحا ولكن كان علينا ان نسير ببطء لأن الشمس لم تظهر الا في السادسة .

وقد استمر مرافقتنا يبدى الاهتمام بهواية التصوير لدينا ، فلما كانت الساعة ثامنة اخذت السيارة الفيات تقفز بنا بطريقة مقلقة في درب غير ممهد « مخصص للبالغ » وتبعنا للوحة التي كتب عليها « آثار رومانية » سرنا حتى توقفنا عند برج متهدم . وقد اقتنعت هيلين بما يقول به دليل السائح من ان هذا البرج انما هو ضريح من الاضرحة ، ولكنني لا ألتفق معها ، فانه يبدو لي كبرج لارسال الاشارات وخصوصا بوضعه على قمة تل يشرف على ما حوله ، فهو مكان مناسب لارسال الاشارات ونحن نعرف اسلوب روما المعقد في بناء الابراج على الحدود لارسال اشارات نارية او للتصوير التلسكوبى وهى الطريقة التي اقتبستها فرنسا فقامت بعمل مثلها ، وبالطبع اسرعنا لتصوير ذلك ، ولدهشنا وجدنا ان واحدا من البربر المغامرين قد قام بحفر كهف لنفسه تحت برج هذا الضريح.

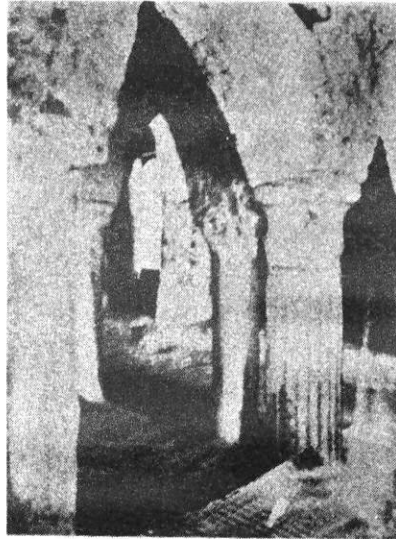
وعدنا الى الطريق الرئيسى مرة اخرى والسيارة تقفز في اتجاه « جادو » اذ كنا ما نزال في الجبل ولمدة ساعة او أكثر اخذنا نسير في متعرجات ودروب صخرية ضيقة حتى الوادى الكبير (لقد خطر ببالي الآن اذا نطقنا ذلك بسرعة فان هذا يكون اصل كلمة نهر « كواد لاكيفير بأسبانيا » ، فالعشب الوفير النامى حول الصخور التي تآكلت بفعل حركة المياه في مجر النهر الذى جف وحافة الوادى الشديدة الانحدار ، كلها تذكرنا بطريق السيارات الممتد من اشبيلية الى رواندا ، اذ نرى نفس تكوين الجبل ، نفس الصخور الرملية وبعض التتوعات من الحجر الجيري ، اما هنا فقد تآكلت الصخور حتى أصبحت حافة سطحية اثرت فيها عوامل التعرية أكثر مما أثرت في جبال سيرا .

وحين اقربنا من « جادو » سرنا لمدة نصف الساعة الأخيرة خلال بساتين التين والزيتون التي بدأت زراعتها منذ ان كنا هنا في سبتمبر الماضى ، والتي تبشر بمحصول مجز في الستين أو الثلاث القادمة، وقد رتبنا امورنا على ان نصل في موعد يسمح لنا بالتجول في قرية « البربر » قبل تناول الغداء ، وفعلنا نجحنا في ذلك وكنا عند الموقع بعد العاشرة بقليل ، وقد استأجرنا جنديا لحمل آلات التصوير ، وبدأنا في تصوير ما فاتنا تصويره في المرة السابقة ويا لها من مقارنة بالعام الماضى ، ففي ذلك الوقت حضر الكابتن « بوكا » وضابط آخر في سيارتهم واصروا على حمل آلاتنا السينمائية وشرح كل شيء تقع عليه العين خصوصا ذلك المسجد البالغ الجمال والبهاء القابع فوق اعلى جزء بالبلدة ، وقد كان هذا المسجد قبل ذلك وفي عهد الرومان عبارة عن معبد منحوت في الصخر وشكله غريب جدا لدرجة اننا حاولنا دخوله من عدة مداخل ولكن كل مدخل كان اصعب من سابقه . وعلى هذا فقد حاولنا بطبيعة الحال ان نعاود الكرة مرة اخرى. فأخذنا نصفه لمرافقتنا في لغة ايطالية سليمة ولكن وجهه ظل دون تعبير أو معرفة ، بل

واخبرنا انه كان في « جادو » منذ ستين ولم يسمع عن مسجد كهذا .

وتقابلنا على الغداء مع الرائد « بيروجيني » حاكم المنطقة ، وعلى الفور بدأ الحوار حول قراره بعدم السماح لأية قافلة بالذهاب الى « غدامس » لمدة شهرين . وقد استغرقنا مدة الغداء في اقناعه بالعدول عن رأيه وفي النهاية تسلمنا رسالة مكتوبة منه الى الكابتن « فوسا » الحاكم الفاشيستي في « نالوت » يطلب منه ان يبعث بنا الى « غدامس » ضمن قافلة الطوارق التي تغادر « سيناون » في أى يوم في الاسبوع القادم ، فاذا حدث ووصلنا « غدامس » ، فسيكون لدينا الوقت الكافي لنفكر في كيفية الرجوع ، فقد كان يتعين علينا ان نقطع مائتى كيلو متر حتى « نالوت » عبر الصحراء ، وكان على المأمور ان يقطع نصف هذه المسافة تقريبا الى « يفرن » عبر الجبل ، وذلك قبل حلول الظلام ، وقد سوى الأمر بعد أن ترك الرجل المسكين سيارته الفيات لى ولهيلين وركب هو شاحنة كانت تأخذ نفس الطريق .

ويوجد طريقان بين « نالوت » و « غريان » الاول عن طريق الهضبة والثاني بمحاذاة السفح عبر الصحراء ولما كان الطريق الثاني اقصر مائة كيلو متر من الطريق الاول فقد اخترناه ، وكانت الرياح القبلية تهدد بالهبوب ثم بدأت فعلا في عنف وضراوة فأخذت



جادو : المسجد الرومانى الأصل

تلفح وجوهنا وتتسرب الى داخل ملابسنا ، وكان الجو حار لدرجة اننا كدنا نموت من الظمأ ، ولكن على العموم كان الوقت ممتعا للجميع فقد نجحنا فعلا في بلوغ « جبل نفوسه » قبل الغروب رغم كثرة المنحنيات حتى وصلنا الى « نالوت » وقد كان الكابتن « فوسا » في انتظارنا للترحيب بنا ودعوتنا للعشاء الذى تأخر لمدة نصف ساعة حتى نتمكن من الاستحمام وتغيير ملابسنا .

دورثى

نالوت في ٢٧ سبتمبر

أمى الحبيبة

اننا راحلون اخيرا الى الجنوب وبطبيعة الحال سنصل الى « غدامس » غدا ، لقد تمتعنا بوقتنا هنا ، بعد رحلة صعبة حتى وصلنا كالأموات ، ان الطريق قصير ولكنه اكثر وعورة والحرارة شديدة ، ان الكابتن « فوسا » هو المأمور هنا ، وهو رجل انيق وخاصة في بذلته الرسمية البيضاء وقميصه الاسود ، اننا نحس بالضيق دون اصدقاءنا ضباط العام الماضى . فلم يبق سوى « رودى » وشرطى البلدة، ولن انسى ما حييت ان اول ضابط قابلناه في العام الماضى كان هو بعينه « ضابط الذباب » على الباخرة التى اقلتنا من « سيراكوزا » .

وقد اتفقنا ان نتصرف بكل وقار لانتقادهم لنا في العام الماضى ، لأننا كنا نبسم أحيانا ونرقص مع بعض الضباط ، ولهذا أطبقنا شفاهنا عن الضحك ، واخذنا نرد على الاسئلة بهدوء ودون حماس ولم يكن هذا بالأمر الهين خصوصا وقد كنا نخطط ونتأمر للحصول على بعض سراويلهم لأننا كنا على وشك السفر مع القافلة الى غدامس وقد تركنا امتعتنا وراءنا لهذا كانت مؤامرتنا للحصول على حاجتنا ، وقد قدرنا مقاس كل الضباط (لم يكن فيهم من يتكلم الانجليزية) واخترنا ضابطا من ضباط المدفعية كان يجلس بجوار « دورثى » لتحصل منه على بنطلونه ولكننا علمنا بعد ذلك انه لا يملك غيره . اما انا فقد اخترت ملازما في نفس قامتى واخذت بنطلونه اما دورثى فأخذت سراويل النقيب ، وقد احتفى « رودى » بنا فأقام حفلا حضره الضباط الفرسان وقاضى البلدة، وكان حفلا رائعا، وقد قصص على الدكتور قصة مسلية جدا عن هذا القاضى . فقد ذهب اليه طالبا منه ان يحضر له امرأة ايطالية بخمسمائة ليرة ، وتعجب الطبيب قليلا ولكن خبرته الطويلة بالعرب علمته ان يتوقع أى شئ وعلى هذا فقد سأل القاضى في جدية كاملة « أى نوع من النساء تتوقع بمبلغ خمسمائة ليرة ؟ » فقال القاضى « امرأة جميلة » سأريك صورتها » وذهب الى البيت وعاد ومعه احدى مجلات الازياء التى بليت

من كثرة الاستعمال . هناك وجد علامة على احدى الصور مكتوبا عليها خمسمائة ليرة وقد وجد الطبيب صعوبة رغم كل لباقته في ان يشرح لفضيلته ان المبلغ هو ثمن الثوب وحده وليس ثمن السيدة التي ترتديه ، ومع ذلك فقد كان القاضي لطيفا وكان مرحا معنا . وفي صباح احد الايام اشار القاضي الى بعض الطوارق المحججين بحجاب ازرق ، فأسرعنا الى آلات التصوير لآخذ بعض الصور لهم ، وخاصة ذلك الفاره الطول الذى كان يرتدى ملابس بيضاء فيما عدا قناع أزرق محكم حول وجهه . ويلبس الرؤساء والقضاة وعلية القوم منهم قناعا أسوداً ، أما الأبناء ومن في منزلة اقل فيرتدون ثيابا زرقاء داكنه بينما يلبس الخدم لونا ابيضاً . وفي نهاية الأمر عرض الطبيب على الطارقي آلة التصوير وآلة السينما ، وقد تقبل فكرة آلة التصوير وان رفض ان يصدق فكرة آلة السينما ، وعلى هذا فقد اخذت اصور فيلما للقلعة وهو واضع يده على الآلة مما جعله يومئذ بها . . وشرح له الطبيب اننى اريده ان يقف بعيدا ثم يقبل نحوى في بطء حتى التقط له فلما وفلا قام بذلك . ثم صافحته ، ولدعشتى البالغة فقد اخذ يقهقه كما لو كان صبيا في العاشرة من عمره ضحكة عالية بلهاء . ولقد تعجبت لأن تصدر عن هذا الرجل الضخم مثل هذه الاصوات البلهاء الغبية . بعد ذلك ذهبنا الى السوق حيث اشترك الطبيب ورودى في مزاد لبيع بعض الابل وصغارها ، وقد قبعنا انا ودورثى فوق بعض اكياس الغلال نراقب هذه العملية المسلية . وقد اوقفت الجمال على اليسار وعلى اليمين ووقف العرب الذين حضروا للشراء ، بينما وقف عربى نشيط يعمل دلالة ، ولأجادة الطبيب اللغة العربية فقد أمسك بالاوراق وبدأ الدلال المزاد بما بدا لنا انه نفس الكلام كل مرة « بسعمائة وخمسين » وفي أحد المرات اثار همهمة بين الحاضرين حين أعلن (لا ضريبة على الناقة القادمة » وإذا ما تم البيع تسلم النقود أولا الى القاضي ، الذى يقوم باحصائها بدقة ثم يقتطع حصته أى ضريبة « نالوت » ثم يسلم الباقي في جديّة كاملة الى الطبيب ، ولا يتم البيع قانونا إلا بهذه الاجراءات .

افتقدنا لقاءات « جونى » لنا على الشاى حيث كنا نتناوله على المنحدر القريب من المسجد ، والوادی ممتد امامنا ، واستعصنا عن ذلك بديلا . بمعرفة جندى بالبلدة اصطحبناه في بعض الجولات لتصوير المزيد من مساكن البربر القديمة . وعند الغروب تصبح ألوان الوادى اكثر رونقا فاللون الوردى يصبح فاقعا والازرق اكثر زرقة وهى مناظر لا ترى الا في سماء الصحراء . . ولقد رسمت رسم تخطيطيا لبعض المناظر ولكنى اضطرت لاهمالها فيما بعد .

ان الساعة الان العاشرة ومنذ العشاء بدأ ضوء القمر في غاية الجمال والبهاء . لقد كان منظرنا مضحكا ونحن نرتدى ثياب المساء ومن تحتها البنطلونات البيضاء ومن حسن

الحظ اننا احضرنا احذيتنا الملائمة والحوذات والبرانس ، وسنعود مرة اخرى لحزم امتعتنا ولكننا سنأخذ فقط حقيبة واحدة للملابس واخرى للافلام وآلات التصوير الست ، لان عربة البريد ستحمل باقى الامتعة حتى « سيناون » اذ سيصبحنا نقيب آخر حتى هذا المكان ، فمن منا ياترى سيجلس حاملا آلات التصوير؟ لأننا بالطبع لن نتركها في الشاحنة تحت هذه الشمس الحارقة . اننا ندعو الله ان يصاب قطاع الطرق بضربة شمس او اى شئ من هذا القبيل او ان يتوقفوا عن قطع الطريق حتى نصل الى « غدامس » ان شاء الله .

هيلين

نالوت في ٢٧ سبتمبر

أهلى الاحباء

تردد الامثال التركية قول « نالوت ولا الموت » ولكنهم مع ذلك لم يذوقوا ما ذقنا ، ففى العام الماضى حين جئنا مع الدكتور « ماشيا » بعد رحلة طويلة بالسيارة من « جادو » متخذين الطريق العلوى ، كان من الممكن أن نتفق مع هذا القول ، اما الآن فلا ولا.. إذ لم نعب ابدا لقد كانت درجة الحرارة فظيعة لدرجة ان يدى ساتشلز تورمتا من الاجهاد في القيادة مما اضطرنا للتوقف مرات ، وفي الوقت الذى نتناول فيه الشاي عادة ، وقع نظرنا على قمتين متشابهتين واخذ ساتشلز على عاتقه مهمة الترفيه عنا فأخبرنا انها جبل « نفوسه » ثم اشار الى قمة اخرى قائمة بذاتها معلنا انها نهاية المطاف بعد ان نعبر واديا ضيقا من الجهة اليمنى ، عندئذ اصلحنا هندامنا وزينتنا ، ولكن هذا كان قبل الأوان اذ لن نصل الا بعد ساعتين وكان علينا لكى نعبر الوادى بين موقعنا وبين « نالوت » ان نسير اولا الى ذروة القمتين المتشابهتين ثم نزل الى اسفل الجهة الاخرى سائرين في متاهات من الدروب والادوية ، حتى فقدنا القدرة على تحديد اتجاهنا ، ثم تنبهنا ان المكان الذى نشده يقع خلفنا . وقتذاك كانت ساعة الغروب وكنا ندور على حافة وادى في ضخامة وعظمة وتنوع الوان جبال « الكلورادو » ورأينا ضابطا ايطاليا شابا يمتطى جوادا أسوداً وهو يتبخر به ويتبعه فارسان يرتديان الزي العربى ، وفي صعوبة أخذنا طريقنا خلال قرية كل مساكنها مبنية من الطوب حتى ليحسبها المرء قرية من قرى الهند ، ومررنا بالمناظر المألوفة من الجمال والحميز ثم توقفنا عند العصر . ولا تزال هيلين تعاكسنى على الملاحظات الضاحكة . التى قلتها عندما توقفنا ، فقد تقدم منا ضابط حسن المظهر قائلا « مساء الخير سيداتى ، ارجوا ان لا تكون رحلتكم شاقة » وكل ما فعلته اننى نظرت اليه في بلاهة وشهقت ثم قلت « ماذا ! ، اتكلم

الانجليزية ؟ » نعم اننى احاول » وكانت هذه طريقة تعرفنا بالطبيب الضابط ، انه اكثر الناس رقة واكثر الاصدقاء صبرا سواء في العام الماضى او العام الحالى .

أليس غريباً ان نكون هنا دون ان نسمع احدا يتكلم الانجليزية إلا ثلاثة من معارف العام الماضى من بين عشرين ضابطاً ، ولكننا ندبر أمرنا ونتفاهم بطريقة مشرفة ، فقد نظموا لنا برنامجاً حافلاً خلال الايام الخمسة التى تسبق رحلتنا الى « سيناون » مع قافلة الطوارق ، لقد اصبحنا السيدتين الوحيدتين الموجودتين هنا .

اخذ احد الملازمين صباح اليوم يسوق فرقته المكونة من مائة جمل لتشرب من العين وتبعناهم بالطبع بالآلات السينما لتصويرها وهى تتصارع للحصول على حصتها من مياه الشرب التى تناله كل حوالى اسبوعين وبمقدار عشرين جالونا لكل منها (من قال اننا في بلاد جافة ؟) ان هذا يبدو عسير التصديق وبينما الجمال تنهذى كنا نحن نهبط على جانب الوادى حتى نتمكن من متابعتها ورويتها عند منحنيات الطريق كلما اتيح لنا ذلك ، وطول الوقت كان العسكرى يلحق بنا ليوجه خطانا في أثر الجمال ، وفي احدى المرات رأينا العدد بكامله متجمعين على احدى المنحنيات وعند مكان منخفض اخذوا ينتظمون في صف طويل ثم بدأ الملازم يسوق كل جماعة منها على حدة نحو حوض الشرب وهو يشرف عليها والسوط في يده وبحركة بسيطة يحاول رفع رؤوسها نحو الكاميرا واخيراً اوقفوها في صفين ، واحداً الى اعلا والاخر في الاتجاه المضاد ، وكان ذلك شيقاً للغاية فان الابل العطشى ان تعبر انسانا انتباها . وكان علينا ان نكون على حذر حتى لا تطأنا بأقدامها ، فقد حدث منذ عامين ان داس جمل جسم هيلين وما زالت تعرج حتى الآن اذا احست بالتعب .

وامس سافرنا الى « سيناون » ونحن لا نتوقع ما سيقابلنا من تجارب قبل ان نصل الى « نالوت » وعند شروق الشمس كنا نقطع مسافة الخمسة وثلاثين كيلو متراً ، في دروب الجبل المتعرجة ومنها الى الصحراء برمالها الناعمة . ومن يدعى ان الصحراء مملة لا يعرف شيئاً عما يتكلم ، فعندما تركنا قمة جبال « نالوت » وراءنا بدأنا السير بين الكثبان الرملية العظيمة وهى عبارة عن بحر من الرمال المتحركة على الدوام فاللون ذهبى في المقدمة ثم يخف ويضعف الى لون الياقوت المائل للزرقة وهو لون البحر الابيض المتوسط ولهذا شبه ببحر الرمال ، وكـم من فنان لاقى نهايته بسبب تهوره وتجاسره على ان يرسم على القماش تلك الألوان الصارخة القوية التى بسطها الخالق امامه . بل اننى لأتجاسر فاقول انه كلما ما بدت الألوان اكثر استحالة وغرابة لمن لم يتعود على الصحراء كانت النتيجة اصدق للحياة . ان السحب نفسها في السماء تتلون باللون الوردى وهو لون الرمال التى تحتها ، وحينما ينعكس ظل السحب على حبات الرمال ، وحين ينعكس

عليها ضوء الشمس فان آلاف من درجات اللون الوردى تعكس ضوءها .

واخذنا نقطع الطريق ولون الشروق الوردى ينتشر ثم يتحول الى اشعة الشمس الشديدة الضياء ونحن نسير على هذه الرمال الناعمة التي تلتصق وتتعلق بكل شيء ، مرة تهبط هبوطا يكاد يكون عموديا على جانب التل ومرة نصعد كما لو كنا نصعد برج « ايفل » لنقف فجأة على القمة ونبدأ في البحث عن جهة أخرى تكون أقل انحدارا لننزل منها . ولكن زحفنا استمر الى الامام ولم نتوقف إلا مرتين ليتمكن اربعتنا من دفع السيارة في أسوأ المواقع ، وفجأة أشار الطبيب نحو نقطتين صغيرتين في الافق قائلا ها هي سيناون وهناك عند الافق بدت الواحتان حيث هما لا تقتربان ولا تبتعدان بالرغم من سيرنا الحثيث وسط الرمال الصفراء واخذت الشمس تعلو كبد السماء والحرارة تزداد والسراب يهيج لنا بحيرات منعشة وظلال اشجار النخيل تتمايل امامنا ، ولكن سيناون ظلت حيث هي بعيدة عنا .

قدنا سيارتنا بعد سبع ساعات من مغادرة « نالوت » خلال اشجار النخيل بالواحة الصغرى وحين وقفنا على التل وجدنا انفسنا امام مدخل قلعة صحراوية صارمة المظهر يحيط بها سور من الاسلاك الشائكة وتحمل لافتة اسم « قلعة سناون » وبرغم تصلب اجسامنا من طول الجلوس فان لهفتنا على رؤية كل شيء جعلتنا نهول خارج السيارة لنقابل مجموعة من فرقة الفرسان الثانية الذين استضافونا طوال اليوم .

وكنا قد سمعنا الكثير عن فرسان الصحراء القساة ، والوسائل السرية التي يتبعونها لاحكام قبضة ايطاليا على الصحراء ، فان واجبههم هو حفظ الأمن في الصحراء وهو ما يعنى محاربة الطوارى بنفس سلاحه ، فهم يمتطون ظهور المهارى ويرتدون نفس ثياب الطوارى، ويتسلحون بنفس اسلحتهم، ويتكلمون لغتهم، ويعيشون كامل عيشتهم واذا لم ينجحوا في كسب ودهم فيجب ان يقضوا عليهم كما يجب ان يقضى على أى وباء .

وقبل ان يرقى أى ضابط جديد فانه يكلف بعدة مهمات حتى يتمكن من اتقان لغة وعادات عدوه ، وليثبت أهليته لقيادة جماعة المهجانة (وكلهم متطوعون من الفرق الايطالية ويؤدون الخدمة لمدة ثلاثة سنوات ويحق لهم اعادة العقد في نهاية المدة) ولكن ما ان تنقضى مدة الاختبار حتى يبدأ الضابط الشاب حياة صارمة فعليه عند التكليف ان يقضى شهرين في الصحراء ، وعشرة أيام راحة في نقطة من نقط الفرسان على ان يكون على أهبة الاستعداد دائما لتلبية نداء الواجب، وسط هذه القفار الشديدة الحرارة الحالية من المياه ومحاربة اعداد كبيرة من اعدائه .

قابلنا غلاما طويل القامة أسمر البشرة وعلى رأسه عصا عصابة وعلمنا انه واثنين من الجنود الوطنيين قد قاتلوا ووقفوا ضد جماعة من الطوارق لمدة عشرين ساعات ، فلما حل المساء نجحوا في التسلل الى القلعة ، وكان هناك غلام آخر اطلقنا عليه اسم « رودلف فالتينو الثاني » وقد عاد للتو من معركة ضد الطوارق ، اذ كان يحمل بعض الرسائل الهامة لتوصيلها للقلعة وقد نجح في ذلك ، قاطعاً مائة ميل في ثمانى ساعات عبر الكثبان ، هاربا من مطاردة الطوارق .

وقد جاءت الاخبار الآن بأن الطوارق نجحوا في مهاجمة احدى القوافل ونهب ما بها من نساء ، ومن المحتمل ان يكلف ذلك الرجل التحيل ذو العينين النافذتين الواقف في نهاية الحجرة ، بالذهاب لمطاردة المغيرين المعتدين . فهو أحسن مقتضى أثر في ليبيا كلها ، فلا يهيم أن يكون الأثر لرجل او لجمال ، لحصان او كلب ، لأنه قادر على اقتفاء الأثر بمجرد ان يراه ، طالما بقي هناك أثر ، بل انه ليتذكر بعض الخواص الغربية لأى أثر اذا حدث وعثر عليه بعد شهور .

وهكذا اخذنا نتفحص الرجال في هذه المجموعة المقيمة في القلعة ، فاحدهم طويل القامة ذو نظارات يبدو كأستاذ في الجامعة اكثر منه جندي ، يتكلم عدداً من اللغات ولهجات الصحراء بطلاقة وسهولة ، ومنطقة عمله هي « الجمادة الحمراء » وهى عبارة عن قفر رهيب من الصخور الحمراء التى ظلت حتى قدومه مرتعا لا ينافس الطوارق فيه أحد .

وحين عبرنا البوابة الخارجية الضخمة وجدنا انفسنا داخل القلعة نفسها ، وفي أحد جوانب الفناء ، برك مهاري مزين بسرج كثير الزركشة والشراريب المتعددة الألوان ، وهو ما وعدنا بتصويره في ارض الخيال هذه ، واخذنا ندور بأعيننا حول المكان في لهفة وفضول ، ثم عبرنا الفناء الى القلعة الحقيقية ، يتبعنا موكب من الضباط حتى وصلنا الى حجرة القائد حيث جلسنا نستريح بعد العناء الذى لاقيناه في رحلتنا الطويلة .

وحين تخطينا عتبة الباب لم نعد نشعر بالاسى على هؤلاء الضباط الذين تضطربهم مهام وظيفتهم للمعيشة في هذه المراكز الصحراوية النائية المنعزلة ، فالمكان ملئ بالسجاد الصغير والستائر والمفروشات ، وبعض الاشياء التذكارية من مخلفات الغارات الكثيرة ضد الطوارق ، مما حول حجرات الضباط الى اماكن للاسترخاء والراحة واحلام اليقظة ، فلا عجب ان يسعى الضباط لأن يكونوا ضمن افراد فرقة الفرسان وهو أمر مرغوب لذاته ، لا كعمل يتحملونه على مضض ثم ينسى .

ثم اتخذنا طريقنا عبر الساحة الداخلية حيث يتدربون على اطلاق الرصاص من فوق ظهور الجمال الباركة على الارض ، حتى وصلنا الى قاعة الطعام .

وحتى نخفف من الحرج الذى أحدثه هذا اللقاء بين تلك المجموعة من الضباط
الشبان (بينهم واحد فقط يعرف القليل من الانجليزية وان رفض ان يتكلمها) وبين
فتاتين امريكيتين لا يميزهما إلا قدرتهما على الابتسام بالطريقة الإيطالية ، فقد حاولت
هيلين الاتجاه نحو حيواناتهم المدله ، ولكن للأسف فقد هربت القطة بصغارها والكلبان
السلوقيان لدى روثينا ، وكان تعليق الضابط ، ان الحيوانات « لم تقع عيونها أبداً على
ملابس نسائية ولذا فهى تخشى النساء تماما كما نخشاهن نحن بعد الحياة في عزلة في
الصحراء » .

ولما اختفت آخر قطة بدأ تقديم الغداء واتخذنا اماكننا في الحجرة المنعشة المرصوفة
بالحجارة المطلية بطلاء ابيض وتناولنا طعاماً ألد مذاقاً من أى طعام تناولناه في كل
افريقيا التابعة لايطاليا . فلم ينقصنا شئ ليكون الغداء ناجحاً ، فقد كان الكل مرحاً ،
وقد اخذنا في مساعدة المترجمين مرة واغرائها مرة اخرى فكانت جلسة ممتعة حقاً ،
ولعل اكثر المفاجآت تسلياً كانت موسيقى الجاز ، فكل ضابط له لحنه المفضل وقد وجدنا
الكثير مما يعجبنا بينها فمثلاً لحن « انتظرني » سيظل يسترجع ذكرياتنا في سيناون ،
لانه كان آخر لحن نسمعه ونحن نغادرها عصر ذلك اليوم .

أخرجنا آلات التصوير وآلات السينما وبدأنا الهبوط من القلعة الى الواحة حيث
دعانا « رودى » الى مقره الذى سحرنا لدرجة اننا كدنا ان ننسى ارض الخيال التى
جئنا لتصويرها ، ونصور قرية مثل قرى الهنود الحمر وقد اصابها الدمار ، فلم يبق
منها إلا حجرة بسقفها معلقة على القمة ولها بابان من الناجية الاخرى ، واحد يطل على
مجموعة من القرى ، والباب الآخر يشرف على سكون الصحراء الرهيب .

وفي طابور مفرد اخذنا نصعد تارة ونهبط اخرى ، حتى وقفنا في رهبة عند المدخل ،
وامامنا وفي احد الاركان وجدنا اريكة عريضة منخفضة يغطيها سجاد احمر املس ،
وبجوارها دف طوارقى ، اما الحوائط فقد لطخت بلون احمر بنى وعلق عليها سجاد
وطنى الصنع ، وسروج خيل وأغطية للوسائد واسلحة وعدد من المدى ، كذلك وجدنا
كرسيًا واحد الارفف به بعض الكتب المهلهلة وعدد من غليون التدخين والتبغ مما يوحى
بالراحة والسكينة ، اما الرجال فقد جلسو مسترخين على الارض ، تعلو الابتسامة
وجوههم ، بينما جلسنا انا وهيلين متربعتين على الاريكة نخشى القهوة المغربية .

وكسر رودى الرهبة حين اعلن ان المهارى ستحضر ، وانصرف لتغيير ثيابه ، واذا
بالرجال يخرجون واحدا وراء الآخر ، ليعودوا مرة اخرى وكأنهم طوارق ، فالثياب
ثيابهم ، السراويل الفضفاضة ، والقمصان الواسعة ، والبنادق الطويلة المزينة ، وقد
وضعت على اكتافهم ، وطربوش الصباح وقد استبدل بالعمامة التى يعرفها رواد

السينما، مع فارق هام وهو ان الطارقي دائماً يضع حجاباً على وجهه فلا يرى منه سوى عينان براقتان .

وعند مدخل القصر الذى ينزل فيه رودى بركت الخيل فركبها الرجال ، وانطلقوا بها في سرعة مذهلة، ولا يمكن مقارنة هذه المهارى بتلك الحيوانات التى يعرفها السياح والتى تدب على الارض في بطء ، حاملة الاثقال ، ان المقارنة بين هذه المهارى، وتلك الحيوانات هى نفس المقارنة بين الحصان الطائر، وبغل الجيش وصوبنا آلات التصوير لالتقاط صور هؤلاء الخياله ونحن وقوفا على قمة التلال الرملية .

وساد السكون بينما كانت المهارى تتسابق مسرعة نحونا ، مرة في طابور منفرد، والفرسان يحاولون الوقوف فوق سروجهم رافعين بنادقهم الطويلة وهم يصرخون بنداء الحرب ، كنداء الهنود الحمر ، وبما أننا لم نكتف بهذا المنظر فبدأوا يعيدون السباق مرة اخرى ، ونحن نتخذ موقعا آخرآ للتصوير .

لقد قبلوا تمثيل الدور عن رضا اكراما لنا وليطلع العالم الخارجى على الصورة الحلوة لحياة الضابط الذى يعمل في افريقيا بكتائب الهجانة ، وقد سرت الخيل باعجابنا وتصفيقتنا مثل ما سر راكبوها ، واخيرا توقف الكل حولنا، وبدأت آلات التصوير تلتقط الصور الفوتوغرافية لابرار جمال ورشاقة هذه الحيوانات ، وملابس الفرسان الرائعة، وكذلك لتصوير ذلك الطراز الممتاز من الضباط الشبان الذين يؤهلون ويدربون في ليبيا لحماية آخر حدود ايطاليا هنا .

وحين انتهى التصوير بدأنا في الرجوع صاعدين التل الى القلعة في رحلة الرجوع بالسيارة الى « نالوت » لكن السائق ظهر من تحت السيارة متعباً ملوثاً بالشحم ليعلن ان شيئاً قد كسر وانه يخشى ان يجازف بالعودة ليلاً ، وتعالى صيحات الرجال فرحاً ، وعادت الموسيقى ، ووجدنا انفسنا نرقص ونبتسم بالطريقة الايطالية ، وهكذا مر الوقت ونحن نستمتع به مع رفاقنا الذين خلعوا احذيتهم ، ثم ظهر الطبيب معلناً ان السيارة قد اصلحت وانها جاهزة لان تبدأ الرحلة فوراً ، وتعالى التأوهات والحسرات ولكن كان لابد من ان نجتمع حاجياتنا ونبدأ الرحيل في اتجاه قرص الشمس الغاربة ، رمال مرة أخرى وتتعطل السيارة فننزل منها ونتعاون في دفعها مرة ومرات ونحن نسابق الشمس ، وهى على وشك الغروب ، يعلن سانشلز « امامنا اكثر من نصف ساعة ، ومما زاد الطين بلة ان مصباح السيارة الامامى قد تحطم وبدأ الطريق المستوى ينتهى ويبدأ الطريق الكثير المنحنيات على جانب الجبل ، وهذا يعنى ان أى خطأ في التقدير ، سيؤدى الى كارثة ، وان أى انحراف عن الطريق المستقيم والممر الضيق يعنى السقوط السريع الى الأبد .

وبعد جرد سريع لحاجياتنا تبين وجود بندقيتين ومسدسين وبعض الماء ، واثنين من البرانس وخمسة رجال تجمدوا تقريبا من شدة البرد ، اذ يجب تهادى المبيت ليلا بالصحراء بأى ثمن وعلى هذا فقد اخذت السيارة تنهب الارض منها والعيون مشدودة على الطريق حتى اوقفها سباتشلز . . واخذت هيلين مكانها بجوار الغلام الذى اصبح لا يرى شيئا امامه ، فنظرها أقوى نظر في المجموعة ، ومر الوقت طويلا طول الابدية وان لم يزد حقيقة عن نصف ساعة ، ويد الغلام على عجلة القيادة ، واليد الاخرى على فرملة اليد وهو يتبع المرايا التى يشير اليها انعكاس يد هيلين على الزجاج الامامى واخيرا وصلنا الى قمة الجبل ، وعلى بعد اربعين كيلو متراً ، كان من الممكن ان نرى اضاء

« نالوت » .

اوقفنا السيارة وتناولنا بعض المشروبات وخاصة السائق الذى كان منهاكا حتى انه لم يستطع ان يشعل سيجارته ، وعقدنا مجلس حرب واقترحت هيلين ان نطلق البنادق ، ولكن الطبيب الضابط قال في حزم « لا » فهذه ارض الطوارق وسيادر رجالنا باطلاق النار في اتجاه الطلقات قبل ان يتحروا الحقيقة ، عندئذ اقترح الدكتور « ماشيا » لماذا لا نطلق شعلة ولكن اختيار موقعنا فوق التل كشف لنا انه مكسو بعشب الحلفاء السريع الاشتعال ، وفجأة اضيء الطريق من جانبيه فقد انطلق صاروخ من القلعة اوضح انهم يعرفون مكاننا ، وتكومنا في السيارة تحت الالحفة لشدة البرد وانتظارا لوصول فريق النجدة .

ولا بد ان رحلة المنقذين كانت شديدة الصعوبة فقد اخذنا نرقب انوار السيارة وهى تميل تارة وتدور اخرى صاعدة مرة وهابطة مرة ، وقد كتمنا انفاسنا ، وفي نفس الوقت الذى وصلت فيه عربة النقل وصلت ايضا مجموعة من الخيالة عبر دروب الجبل ، وقفز رجال مرتعدون وهم يحملون الثقالات والاربطة والمياه والبطاطين وبعض المواد المنبهة .

وصعد الجميع الى عربة النقل وهم يحتمون ببطاطين الجيش الثقيلة وبدأت المسيرة مرة أخرى نحو « نالوت » حيث كان مدير المنطقة وعدد من الضباط في انتظارنا .

وبالبحث تبين لنا انهم كانوا قلقين على وصولنا ولكن بعض الرجال شاهدوا النيران التى اوقدناها ، وخيل اليهم ان السيارة قد احترقت فأسرع بعضهم صوبنا بالسيارة وامتنى الآخرون ظهور الخيل وبقي قليلون يعدون ما يلزم ساعة الوصول .

وبدلا من ان يروا جماعة من الجرحى الذين توقعوا رؤيتها ، وجدونا نخرج من من سيارتنا ونحن نضحك في سعادة ونصرخ « نريد شيئا نأكله » فقد كدنا نموت جوعا ،

ويبدوا أنهم كانوا قد نسوا العشاء حين رأوا شعلات النار التي اطلقتها ، ولكن العشاء كان له طعم ألد، حين جالسنا معا بعد منتصف الليل نتناول الفراخ المشوية والموسيقى تشدو « سيكون هناك وقت للدفع . . في سكون الليل في المدينة القديمة » .

دورثي

نالوت في ٢٨ سبتمبر

أهلى الاحباء

يوم شاق جديد . . . فلم نكد ننتهى من شرب قهوتنا حتى أقبل « عيسى » ليخبرنا « بوم بوم ، على القلعة » واختفى بآلات التصوير على كتفيه ، ولم ننتظر إلا لأخذ مظللتنا ثم تبعناه ممثلتين ، وكان مع الملازم « روبرتو » مدفعان من مدافع الخنادق وهما شبيهان بالمدافع الفرنسية المعروفة برقم ٧٥ ، وكان هذا اول سلاح مدفعية نراه او نسمع عنه في « نالوت » وخرج كل الجنود والعرب وقد تسمرت اعينهم على طاقم المدفعية الممتاز ، فقد تطلعوا حولهم ، وحشو ذخيرتهم ثم اطلقوا النار في دقة واحكام يحسداهم عليها كثير من المدفعيين الاوربيين .

وكانت هذه اول مرة نحاول انا وهيلين ان نصور فيلما سينمائيا لاطلاق مدفعية لا تبعد اكثر من بضعة أقدام ، لهذا فقد كنا نقفز في الهواء مع كل طلقة ولذلك كانت النتيجة عجيبة .

وقد عاد « المقدم » فجأة عصر هذا اليوم وارسل من يبلغنا انه سيصبحنا غدا الى « درج » اذا كنا على استعداد ، ومنها يرسلنا الى « غدامس » مع قافلة جمال المهارى ، ولما كان في هذا اختصار المسافة من خمسمائة كيلو متر الى مائتين فقط فقد قبلنا بسرعة وقضينا الليلة نحزم امتعتنا .

وقد بلغنا « سيناون » دون اية حوادث نظرا لاننا بصحبة المقدم ، ثم اخطرنا قافلة الطوارق المنتظرة بتغيير خططنا ، وبعد تناول الغداء انطلقنا نحو مركز القيادة عند الحدود ، وقد نوّلف المجلدات ، ولكن لا شيء مما قرأنا او رأينا كان قد اعطانا فكرة حقيقية عن « درج » فحين وصلنا الى هناك عند الغسق ، انبهرنا من بهائها وروعها ، فهي كأسطورة ، كأغنية ، اليست ارض صلاح الدين ورجاله المحاربين في ثيابهم البيضاء ؟ .

وبعد رحلة استغرقت اثني عشر ساعة عبر صحراء تصل درجة الحرارة فيها نهارا الى ١٤٥ درجة فهرنهايت ، اخذنا نتقدم ببطء نحو حصن من حصون الصحراء الجرداء ،

محاط بالاسوار المصنوعة من الاسلاك الشائكة، وكنا متعبتين مغبرتين وكدنا ان نخلع الحفنا وننزل آلات التصوير ، ولكن المقدم اشار الينا بأن نرجع ، وبعد محادثة قصيرة بينه وبين شاب طويل القامة، يركب جملا تبعناه وهو يسرع به الى الامام الى اين نذهب ؟ ليس بعيداً ، وسرنا حول منعطف منحدر ووجدنا انفسنا في غابة من أشجار النخيل ، وكانت ساعة الغسق حين سارت بنا السيارة خلال هذه الغابة الساحرة حتى توقفنا في ساحة القلعة الرابعة ذات الفتحات التي تطلق منها النيران .

وعلى قدر ما سمحت لنا الرؤية من خلال اشجار النخيل كنا نرى نار خيامات الهجانة ، وقريبا منا كان الجنود انفسهم ، خمسمائة رجل يحملون خمسمائة شعلة ترسل ضوءها لتنير الطريق عند وصول قادتهم ، وانتظم الجمع في استعراض تحية للمقدم الذي شكرهم وحياهم ثم تحول ليسانع السيدتين للخروج من السيارة ثم ليعقبهما على ضوء المشاعل الى ثمانية شبان عقدت الدهشة ألسنتهم كما لو ان قبلة قد القيت فجأة في وسطهم ، ماذا !! نساء في منطقة حرب !! هذا مستحيل ، ولهذا اسرعوا يقربون ليكتشفوا حقيقتنا ولنكتشف نحن بينهم اكثر من صديق من العام الماضي .

وكانوا في حيرة ، لا يعرفون ماذا يفعلوا بنا ، لقد حيونا بسرعة ثم اقبل ملازم نخجول وعرض علينا حجرته فتبعناه الى هناك ، وصعدنا من مدخل مسقوف على شكل حدوة الحصان ومنه الى قاعة كبيرة مربعة الشكل ذات سقف منخفض مقوس مرفوع على اعمدة بدائية من الطين ، ومن الناحية الاخرى عبرنا فناء وتبعناه صاعدين بضعة سلالم اخرى تنتهى الى باب من جذع النخيل يفتح على حجرته التي تركها لنا .

وحين دخلنا وجدنا انفسنا في حجرة مستطيلة مقسمة بستائر من الحرير المتواضع ، الى قسمين وبكل قسم سرير على منصة من الحجارة فرش عليها سجادة حمراء ويجوار كل نافذة وضع مقعد ومنضدة وبجانب كل سرير وضع كل ضابط سرج الركوب مستعملا اياه كرف للكتب ، اما الحوائط والسقف فقد علق عليها نسيج يدوي يضارع في جماله جمال اى جناح للحريم، ولكن البنادق الطويلة والاسلحة والخناجر الخاصة بالضباط تكدست في جانب من الحجرة اعلانا وتعريفا بعمل شاغل المكان .

هل شعرنا بأى تعب ؟ . . اطلاقا ، منذ وطئت اقدامنا ارض الخيال والاحلام هذه . من هي التي لا تنسى الآلام الجسدية وهي تقرر اى ثوب يجب ان ترتديه على العشاء . لقد وجدنا فجأة وبطريقة لم ندرناها ابريقين مملوئين بالمياه الساخنة فبدأنا على الفور في الاغتسال . . ان وجود المياه الباردة والساخنة بوفرة يعنى اننا نستطيع الاستحمام ، ثم ارتدينا اجمل ملابسنا الشفافة، وتزيننا بالعقود والاساور ونزلنا الى الفناء حيث وجدنا جنديا

من الهجانة محجب الوجه في ملابس بيضاء ويحمل بيده الشعلة عالياً لينير لنا الطريق ، وقد مررنا عبر عديد من القاعات والممرات ثم صعدنا سلماً حلزونياً الى السطح ، وهناك سمعنا حركة اقدام واذا بالمقدم وقائد الموقع يساعدانا على الجلوس الى المائدة ، وفيما عدا المشهيات التي لا مفر منها، فان العشاء كان خلواً من أى شىء خاص ، ولم يشغل بالنا أى شىء مادي ، ولكن العشاء في ضوء القمر الساجي ، يقدمه احد الطوارق المحجيين الصامتين ، سيبقى في ذاكرتنا كمادة تنسج حولها الاحلام ، ولم نستطع الا ان ندور بأعيننا فيما حولنا ونتطلع الى هلال الشهر الجديد الفضى اللون الذى اخذ يرنو الينا نحن الرجال والنساء دون تمييز ونحن نتناول العشاء في محاذاة رؤوس الاشجار بينما ضوء المشاعل يتراقص وسط سعف النخيل كآلاف الفراشات عندما تحوم حول النار في مساء من امسيات امريكا .



نالوت : منظر داخلى للقلعة القديمة

ونظرا لاهتمامنا بكل جديد حولنا، فقد عرض الرجال ان يقدموا امامنا مشهدا طريفا لهذا فقد نمنا مبكرتين واستيقظنا بالتالى باكرا حيث خرجنا مع الشروق لصباح حافل بالتصوير.

فما كادت الساعة تقرب من الساعة حتى كنا قد ارتدينا ثيابنا ومعنا جنديان يحملان عنا آلات التصوير، حيث تجمع تحت اشجار النخيل قرابة خمسمائة جندي يولفون المجموعة الأولى ، وكل منهم في بزته الرسمية البيضاء الناصعة مع العمامة وكذلك وشاح

الوحدة الاحمر المميز وقد ألتف حول الوسط ، ثم يعلو حتى يمر من فوق الكتف فيتقاطع على الصدر والظهر مع خنجر كل منهم ، لقد وقفوا دون حراك والبندقية على الكتف بجوار جمال المهارى الباكّة على الارض ، وقد مررنا بصحبة المقدم والقائد من بين الرجال ونحن نحاول تصويرهم في أوضاع غير طبيعية ، ثم اجتزنا الرمال الحارقة الى واد ضيق فوق منحني استراتيجي ، حيث قبعنا وعلى مدى ساعتين اخذ الرجال يحشون البنادق، ثم يطلقونها وهم يمرون امام آلات التصوير مرة وقوفا ، ومرة مهرولين وثلاثة وهم يعدون ، كان منهم ثلاثمائة من المدفعية ورماتها، ومائة من المشاة الراكبين، وخمسون من الطوارق الملتثمين وقد تسلحوا بالسيوف القصيرة المتقاطعة على هيئة الصليب ، والمعروفة لديهم ، ثم بندقية قصيرة طرحت فوق الكتف .

واذا حدث وقرأ هذا الكلام احد المصورين السينمائيين المحترفين ، فليسمح لي ان أوكد له ان التصوير السينمائي في امريكا او اوروبا لا يعدو ان يكون لعب اطفال ، اذا قورن بما نقوم به نحن ، فلم يكن لدينا حامل ثلاثي تثبت فوقه آلاتنا ، لهذا لم يكن بد من شد عضلاتنا والقبض بقوة على الآلات، وحملها وقبل انتهاء العرض بمدة طويلة كنا منهكتين، ولكننا صممنا على انه مهما حدث، فلن تصدر عنا أى اشارة تنبئ بانهنا هذا.

وحين مر آخر الفرسان من أمامنا ارتمينا على الرمال طلبا لقسط من الراحة قبل ان نقوم بأخذ الصور القرية لابرار الاغطية والسروج المزركشة .

ثم انطلقنا بعد ذلك بعيدا عن المعسكر الى قرية الطوارق لزيارة هذا النوع البشرى الغريب ، ساكن الصحراء ، حيث توجد النساء غير محجبات يخترن ازواجهن الملتثمين ، ويتمتعن بأبداء الرأى في شئون القبيلة على قدم المساواة مع الرجال ، وحين اقترينا من مخيماتهم ، تركنا الفرسان وتجمعوا على مشارف المخيم يراقبوننا ونحن نتجول ونبتسم ونتحدث مع النساء والاطفال ، وقد ألتف الجميع حول الفتاتين الاميركيتين ، واحدة طويلة القامة شقراء، والاخرى قصيرة ذات شعر بنى ، يلمسون اصابعنا ويغمغمون في خجل ببعض كلمات التحية وقد تشجع الرجال من جرأة نساہم فتقدموا هم ايضا وعرضوا ان يقدموا رقصة الحرب امامنا .

وفي الحال جلسنا القرفصاء تحت اقرب شجرة نخل، ونحن نقضم البلح بينما التفت بقية الفتيات حولنا في دائرة كاملة على بعد بضعة أقدام وبدأن يدندن اغنية قصيرة جلفة ويزيد من جلافتها اقترانها بالضرب القوي على جلود الدفوف ، وبدأ الرجال يقلبون واحدا اثر واحد حتى اكتمل العدد ثلاثون او اربعون واخذوا يقفزون في سرعة مذهلة فمرة يقذفون بالبنادق الى أعلا ومرة يركعون وهم يخبطون الارض في سرعة فائقة ،

وهي نفس الرقصة التي يعرفها العالم برقصة « القوقاز الروسية » ومع هذا يجدون القدرة على الاستمرار في صراخ يجعل الهندي الاحمر الذاهب الى القتال يتوارى خجلا ، وبالطبع اردنا ان نصور فيلما سينمائيا ولكننا لم نجروا على الاستئذان في ذلك ، لهذا اخفينا آلة التصوير تحت البرانس ، وهي تعمل ، وفي محاولة لكتف صوت دوران الآلة حاولنا ان نستمر في دردشة وحديث لاه .

وفي الخامسة من عصر نفس اليوم تجمعت الكتيبة في تشكيل عسكري لتبدأ فترة اخرى من المناورات ، وهو منظر مثير أخاذ قد لا نراه مرة اخرى ، فكل مجموعة تشكل مربعا قائما بذاته ، ضباطه في المقدمة ويقود الجميع القائد الشاب الوسيم ، وهو يبعث بتعليماته عن طريق صفارته .

وقد وقفنا خلف المقدم وعلى مقربة ، واخذت كل وحدة تمر أمامه فتحييه وتتجه غربا راكبة المهارى المطهمة والكل يتحرك حركة رجل واحد ، وقد وقفنا مشدوهتين وهم يحتفون وراء كثبان الرمال في اتجاه الشمس الغاربة ، ولمس المقدم ذراعى فركبنا السيارة الفيات الى « تغطا » حيث ننضم الى ركب القافلة المتجهة الى « غدامس » عصر اليوم التالي .

و « تغطا » واحدة من اقوى مراكز الحدود الايطالية ، وهي عبارة عن حصن مربع مبنى من الطوب ذات ابراج دائرية في كل ركن ، ويتشر حول الحصن خيام الكتائب العربية البنية اللون ، ويحيط بالجميع سور من الاسلاك الشائكة ، ومنظره عند الغروب منظر لا ينسى ، وفي كل برج صغير وقف جندي أترى مدجج بالسلاح وحين يهبط الظلام فان قوة من المجندين الايطاليين الذين يؤدون الخدمة العسكرية يسلطون الاضواء الكاشفة القوية من فوق السطح فتمزق الظلام ، ومن الواضح ان الملل والعناء الذي يلاقيه هؤلاء الجنود يجعلهم يفضلون هجوم المغيرين عن ذلك الصمت الكثيب .

ولكن حين اتت الانباء بالاسلحى بهجوم المغيرين فعلا على طريق « غدامس » اصبح الامر جدلا هزلا . فتصدر لنا الاوامر بالبقاء ، فتمكث ثلاثة أيام في الحر القائن ، في مخفر صحراوي صغير بصحبة خمسة ضباط مرتبكين ، ومع ذلك ورغم استحالة التفاهم بلغة مشتركة فقد حاولوا جهدهم ان يخففوا عنا وطأة الوقت .

وفي أولى ليالى ذلك الحجز الاضطرابى تجمع الجنود الذين سبق ان صورناهم والذين يؤدون الخدمة العسكرية وعليهم تقع مسئولية الاضواء الكاشفة تجمعوا مع لواء اللاسلكى وهم يغنون مواويل الحب والعشق ، او يقدموا تقليدا بارعا لرقصاتهم الشعبية الوطنية .

وقد جلس خمسون رجلا القرفصاء او ركعوا حول فريق الموسيقى المكون من اربعة :
واحد بالزمار المصنوع من نة الغزال ، وطبلة صغيرة ، واخرى كبرية كان من
الواضح جدا انها كانت اول امرها صفيحة بترول ، وزجاجة مياه معدنية بداخلها
ملعقة ، ووسط هؤلاء وقف راقصان وقد ارتديا جلود الحيوانات المتوحشة واخران
وقد ضمنا ملابسهما الفضفاضة على طريقة راقصات البطن بالصحراء . وكانوا من
البراعة حتى تعبنا من الضحك واستحلفناهم ان يعيدوا ذلك في ضوء النهار حتى يمكننا
تصوير هذه المشاهد .

وبعد ان انتهى الرقص جاء رجال الاسلحة يدعوننا الى حجرتهم ، فعبنا الفناء الذي
ينيره ضوء القمر الى حجرة واسعة على جوانبها لوحة الازرار ومولدات الكهرباء ،
وجهاز استقبال في احد الاركان ، وجلسنا على الوسائد الطوارقية ووضعنا السماعات
على آذاننا نرقب هذه التجربة الجديدة الممتعة ، اذ اخذنا نستمع للفصل الاخير من احدى
أوبرات فيينا واخرى لسفونيه من اوركسترا برلين واختتمنا ببرنامج راقص من لندن ،
وياها من متعة فبرغم تشابك اسلاك السماعات فقد قضينا وقتا ممتعا ، لقد كانت كثرة
الحفر التي تملأ ارض الحجرة هذه هي تجربتنا عن الحياة في مخفر داخل الصحراء
الليبية .

دورثي

تغطا في ٣٠ سبتمبر

أمي الحبيبة

لقد غادرنا نالوت عند الشروق ووصلنا « سيناون » في وقت يسمح لنا بجولة خلال
الواحة قبل ان يحين وقت الغداء ، ثم استأنفنا الرحلة لنصل هنا في الساعة السادسة
والنصف ولما سمعنا نفح الابواق ونحن على مدى النظر من الحصن اصلحنا زيتنا ، حتى
نبدو في هيئة تشرف بلادنا وكنا سعداء بذلك ، وعند المدخل وقف ثلاثة ضباط من
الفرسان وقد ارتدوا وشاح اللواء الاول وقد نبح قائدهم النقيب « بوزيلي » في اقناع
« المقدم » لاصطحابنا معه الى « درج » ولن نستطيع ابدأ ان نوفيه حقه من الشكر على
العشاء الذي دعانا اليه في الشرفة مع اربعة عشر ضابطا ظهروا كلهم في ثيابهم البيضاء
الناصعة ، وستظل هذه المناسبة واحدة من ذكرياتنا التي لا تنسى .

وبعد ان غادرنا « تغطا » انحللنا حوالى ألف قدم نحو الساحل مارين بالواحة الهزيلة
الاضواء مخترقين اشجار النخيل حتى وصلنا الى حصن البربر القديم في « درج »

منظر كالخيال فالمئات من المشاعل تومض في حلكة الظلام فتظهر الملابس البيضاء التي يرتديها الخيالة المثلثون ، وحين قدم لنا الضابط الاول غمغم بشيء ثم ضحك . وكان في ضحكته شيء مألوف ، فسحبته ناحية احد المشاعل كان نفس ، « ضابط الذباب » في الباخرة وقد تغير كثيرا ، بدا انيقا في السروال الابيض الفضيض والقميص ذى الكم القصير ، والاقدام الخافية إلا من صندل طوارقي ، وقد وصفت لكم « دورثي » مقامنا هنا والكتيبة أثناء قيامها بالمنارات عند انبلاج الفجر .

وليس لدى المصورين الاعزاء في بلادنا اية فكرة عن الصعاب التي نقابلها ، فهم يجدون من يعد لهم كل شيء ، اما نحن فنقوم باعداد كل شيء بانفسنا ، فالمناورات يؤديها الرجال لقائدهم وليست لنا ، اما في الفجر او بعد الغروب ، ولذلك فنحن نقوم بحمل آلة التصوير التي تزن اثني عشر رطلا فنحس كأنها تزن ألف ومائتي رطل ذلك لاستحالة استخدام حامل بثلاثة قوائم فوق الرمال الناعمة وتحت الشمس الحارقة ، ولا شك ان احدهم سيتقدم باقتراح ذكي بأن نحمل معنا بعض ألواح الخشب فنثبتها معا لتكون منصة نحملها الى كل موقع نذهب اليه ، او أى اقتراح مستحيل مماثل . دعني اخبرهم كيف عانينا من اجل حمل حقيبتين واحدة للملابس والاخرى تحمي افلامنا الحساسة التي تبلغ حوالي ثلاثة آلاف لفة فلم سينمائي وخمسة آلاف فيلم ملون تحميها من الشمس وحرارتها ولو أن « النقيب » شاهدنا حاملتين ألواح خشبية طولها ستة أقدام لطلب منا في أدب ان نرجع من حيث اتينا .

« وتغطا » ولو أنها بلدة صغيرة الا أنها مسلية جدا ، فقد جلسنا في ابراج الحراسة عند الغروب نرقب الحراس الارترين وهم يحملون مزيدا من البنادق فينعكس طول اجسامهم النحيلة في الضوء الخافت وكل واحد منهم يضع على رأسه الطربوش ذا الشراطة الراقصة .

ولدى مضيفنا كما نسمى ضابط التغذية ، سلوكي يبدو كفأر سمين ، ذو ارجل طويلة لأن عمره ثمانية أيام فقط ، اما امه فتعمل ضمن فريق الاستكشاف باللواء وقد صحبت الجنود أمس الى داخل الصحراء كأى فرد منهم ، ولهذا اخذنا على عاتقنا مهمة العناية بالجرى الصغير اذ كنا نطعمه اللبن كل ساعتين من خلال احدى زجاجات العطر التي كانت معنا ، وقد نجحت هذه الطريقة تماما ، وقد فتح الجرى الصغير احدى عينيه اليوم ، لقد سافر « المقدم » فعلا اذ سمعنا الكثير من الابواق وشعرنا بالسرور لاننا سننال يوم راحة رغم اننا نعرف معنى وجود المغيرين بالقرب منا ، وفي اليوم التالى ارسلت غدامس تعلن عن أمان الطريق ولهذا سنسافر في الخامسة عصرا حين

تحف وطأة الحر.

هيلين



درج : رقصة الحرب عند الطوارق

غدامس في ٢ أكتوبر

أهلى الاعزاء

أخيرا جاءت الانباء ان الطريق آمن ، فجئى بالمهارى وصعدت انا وهيلين على « الراحلة » الخشبية وبدأت رحلتنا حقا الى « غدامس » انه لشعور بغيض ان ترتفع مؤخرة الحمل بينما يظل هو ببارك بقدميه الاماميتين ، اذ اتوقع دائما ان انقلب على رأسه واشعر بالدهشة اذا ما نجحت في تفادى ذلك ، وكذا السرج اذ اننا لم نكد ننتهى من امره حتى كنا قد تسلخنا في أماكن حساسه من اجسامنا واصبح لدينا استعداد واضح لأن ننكفئ على وجوهنا ، فهو عبارة عن شئ خشبى بغير كساء ، ويشبه الى حد ما مقعد الدراجة وفي وضع غير مثبت على سنام الحمل ، وحين يقف الحمل منتصبا نبقى نحن على ارتفاع عشرة أقدام تقريبا دون ان نمسك بأى ركاب يبعث على الأمان حتى ولو كان امانا كاذبا ، وبالعكس فان القدمين تتكوم امام القتب وتبقى متدلّية فوق رقبة الحيوان . والاسوء من هذا ان الحيوان حين يبدأ في مشيته المتأرجحة فان

الحركة المتكررة تجعل النوم امرا كثير الاحتمال ، وبالطبع فإن الخطورة تكمن في ان المرء قد يقع من جراء ذلك ، ولهذا فقد اخترع الطوارق فكرة ذكية بأضافة شيء لمؤخرة قتب العذاب، هذا ، ان حفظ التوازن عملية شاقة وتصيب الجسم بالآلام مبرحة ، ناهيك عن وصف الحرارة الحارقة اثناء النهار . فكلما ارتفعت الشمس في كبد السماء ارتفعت درجة الحرارة وزاد وهج الضوء ، واخذت اقدامنا لا نتحمل احذيتنا، وتصبح جوانب الخيمة كالفرن ، وحين تصل الحرارة الى الذروة، نكون قد تعودنا عليها ونظل نرقب في اعجاب الخيالة والمهجانه وهم يقومون باعمال المعسكر العادية بلا مبالاة ، حتى اذا ما انتهوا من عملهم التفوا في برانيسهم واستلقوا نياما في أطمئنان وحين نستلقى على الارض باجسادنا النهة من الكدمات نظل نساءل عما اذا كان من المحتمل ان تنحف حدة الحرارة مرة اخرى ، ولكن النسيم ما يلبث ان يحمّد ثانية ونظل نتقلب على الجنين خلال الساعات الاربع اتى لا يسمح لنا بغيرها للراحة ، ان السفر بالقوافل في هذه القيافي عملية أكثر من صعبة وتحتاج لجلد وشجاعة .

وقيظ النهار يستحيل تصوره اذا ما قورن بالليل الشديد البرودة ، وقد يهب النسيم حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر فنبداً في استرداد انفاسنا والتطلع لحياة اطول . لقد احضرت الجمال وقيدت الى جانب المعسكر استعدادا لتحميلها بالامعة، وتفك الخيمة وتلف وتحمل على ظهر البعير المسكين الذى اصبح عليه ان يحمل الحقائب وآلات التصوير .

وحين ينتهى وضع كل الامتعة نشعر بالسرور، لأننا تذكرنا احضار معاطفنا الصوفية، فقبل حلول منتصف الليل بكثير نلف البرانس حول اجسادنا ونترل القلنسوة على جباهنا اتقاء للبرد القارس ، وحين يقف الركب حوالي الثالثة بعد منتصف الليل فاننا لا نتنظر حتى تنصب الخيام بل نلف انفسنا في أى شيء نجده ، وندفن اجسادنا تحت غطاء دافئ من الرمال الخفيفة ، ونحمي انفسنا من الجمال المتطفلة بحاجز من السروج وآلات التصوير ، وفي خمس دقائق ننسى هذا العالم، ولا نستيقظ إلا في الفجر لنجوب ثم نقف على ارجلنا وبعدها نشرب القهوة الساخنة ثم نمشى ونحن نترنح كالسكارى حتى تطلع الشمس ونستطيع ان نمتطي الجمال الخطرة .

انه مناخ عجيب ولكن المرء لا يملك الا ان يحبه خصوصا حين نشق طريقنا الطويل وسط الرمال في ضوء القمر، واثناء النوم يتخذ الحراس كل التدابير لحمايتنا ضد المغيرين من رجال القبائل فنحن نشكل مركز الدفاع بجوار قائد القافلة وعند القدمين يرقد « جوني » ثم تترك الجمال في دائرتين حولنا وعلى كل جمل يربض جندي ومعه بندقية معدة للاطلاق نحو الخارج من فوق السروج. وخارج الدائرة يمشى اربعة حراس في اتجاهين

مختلفين ، ونفس التنظيم واليقظة تتبع اثناء السير ، فعلى رأس الموكب يركب فارسان وبعدهما هيلين وقائد القافلة يتبعهما اربعة آخرون من الهجانة ثم يأتي دورى انا «وجونى ومن خلفنا اربعة جنود آخرين . أما الحيوانات التى تحمل الامتعة فتأتى في المؤخرة تحت الحراسة ايضا ، وفي اثناء الليل يسير على جانبى القافلة حراس يسبقون لاستطلاع الطريق حتى اننا لا نشعر بهم الى حين تتحرك المجموعة التالية للقيام بدورها، وليعودوا هم الى اماكنهم في صمت .

وحتى دون تهديد المغيرين فان الرحلة الى غدامس كانت ستكون حدثا لاينسى ، فقد قدر علينا الا يفوتنا شىء من الاثارة ، فقد سألنا «جونى» ماذا ستفعلون اذا حدث وأسرتما حقا ؟ « فردت هيلين » نتعلم مجموعة من الاغاني الجلدية « واجبت انا » نحصل على بعض الحللى الجلدية « وفي هذه اللحظة سمعنا صفارة احد الخفراء وتطلعا الى اعلى فرأينا ظل ثلاثة جمال وركابها ، وفي الحال اتخذنا تشكيل المعركة، واخذ كل جندى ينزل بندقيته الطويلة في صمت استعدادا للدفاع عمن يكون في حراسته . وصدرت تعليمات بأن نعمل جهدنا حتى نصل الى الصخور الرملية التى أمامنا اذ لمجرد ان نصل اليها نستطيع ان نصمد حتى تأتى النجدة ، كيف ؟ لأن موعد وصولنا كان قد ارسل باللاسلكى ، فاذا لم نظهر فان جماعة انقاذ سوف ترسل لنا ، لقد كانت حقا اخطر ساعة في اية رحلة قمنا بها .

وكان الحظ معنا ، فقد رمى الركاب الثلاثة ببنادقهم وتقدموا نحونا ، لقد كانوا حراسا إضافيين ، ارسلوا من « غدامس » لتعزيز الحراسة علينا خلال المنطقة الاكثر تعرضا للخطر ، وحين ادركننا الصخور ، تجمعنا وتركنا الجمال وفرشنا الاكلمة، واشعلنا نارا ثم بقينا ساعة للراحة نتناول فيها طعاما ساخنا قبل ان يبرز القمر ليضىء لنا الطريق . ولما كانت هذه آخر ليلة لنا في العراء فقد التمسنا الاذن في ان نسبق نحو الحصن قبل قمر الليلة التالية، حيث نستطيع ان نستحم وننام على سرير بدل النوم على الحجارة الخشنة وقد سمح لنا بذلك . ولكن في عجلتنا لم نحكم سدادة زجاجة المياه وحين اقبل الليل واعددنا الخيمة بدأت انا وهيلين نخوض تجربة لم نخضها قبل اليوم ، فلم تبق الا بعض المياه الفاترة في قاع قربة المياه الجلدية، وحين ذقناه رفضت ان تبقى في جوفنا فقررنا الاحتفاظ بها في حالة احساسنا بظمأ اكبر يخفف حلوقنا ، وفي آخر صباح لنا في الرحلة استيقظنا بعد الفجر مباشرة وفكت الخيمة وشربنا قليلا من القهوة وبدأنا السير ووصلنا « غدامس » قبل الظهر مباشرة، وقد بلغ بنا التعب كل مبلغ لدرجة اننا وجدنا صعوبة في الحركة، ولكننا تقدمنا نحو الحصن ، كما لو كنا متعودين على اداء هذا التمرين الصباحى ، ثم قدنا الجمال حتى تبرك دون مساعدة من احد وتقدمنا في مرج نحو الضباط المتجمعين .

ان كل انسان يتصور ان الصحراء تتكون من رمال وانها نوع من الارض الممتدة بمحاذاة البحر . ولكنها ليست كذلك ، على الاقل ان وجد مثل هذا الساحل فهو في اماكن قليلة وفي الوسط ، وبالعكس تماماً فان كل الرمال التي رأيناها هي كثبان متفرقة على مشارف الواحات ، اما فيما عدا ذلك فيحرق من التلال المنخفضة تحجرت وجفت بفعل حرارة الشمس فتحولت الى صخور ناعمة متماسكة تدب فوقها الجمال فلا تغوص ، اما الوديان فينمو عليها نوع من النبات الخشن كالفرشاة ارتفاعه جوالى قدم تحب الجمال أكله ، ويسبب لنا الكثير من المضايقات ، ونحن نركب ظهور جمالنا ، التي تغرز رؤوسها لتتناول هذا النبات بين حين وآخر .

دورنى

غدامس في ٤ اكتوبر

أهلى الاحباء

تركنا أسرتنا ووقفنا وسط جموع هائلة من الذباب ، ثم ارتدينا ملابس خفيفة ، وحملنا آلات التصوير والمظلات وانطلقنا الى البلدة التي نجشمنها كل هذا العناء لنصل اليها وقد تبين لنا في اول مساء ان الرحلة تستحق العناء الذى لاقيناه ولكن كان التصوير والرسم التخطيطى من اصعب ما يمكن ان يتصور المرء .

ولأننا كنا رابع وخامس امرأة تزور « غدامس » وان كنا اول « سائحين » بها فلا يحق لنا بالطبع أن نشكو من البلدة وسكانها . . بالعكس . . فعلى عتبة كل باب برزت رؤوس عدد لا يحصى من النساء أخذن يجبن على تحيتنا « نهارك سعيد » بأصوات ضعيفة خافتة . اما الرجال فيبدو انهم كانوا مستقلين او نائمين ، فقد قاموا عند قدومنا وظلوا واقفين ونحن نمر بهم ، لكن كبارهم وشيوخهم تقدموا نحونا يلمسون اناملنا ثم يقبلون شفاههم ، والكل بلا استثناء يحى التحية الايطالية .

ولأنها تقع في الصحراء الوسطى (العروض المدارية) في منطقة تدل السجلات المحلية انه لم يسقط فيها مطر منذ آلاف السنين ، فقد انشأ الأهالي بلدة ذات ازقة ضيقة متعرجة ، نظيفة نظافة تامة ، وترتكز اسقف المنازل على أقدام سداسية الشكل ، ولا تشبه اطلاقا فناء الاقواس العربية التي تشبه حدوة الحصان . وعلى جوانبها ارائك عريضة يضطجع عليها كبارهم وشيوخهم ليدخنوا او يدردشوا ، او يحتسوا القهوة المغربية التي يتناولونها في كل وقت وفي كل مكان . ومن خلال هذا الطريق العام الذى لا يزيد عرضه عن اربعة اقدام سارت منذ آلاف السنين القوافل الكبيرة المحملة بالذهب من

مناجم سليمان أو العاج وريش النعام من الاحراش الاستوائية .

واستمر ذلك حتى انشأ الانجليز طريق السكة الحديد من « كانو » حتى الساحل واستولوا بذلك على تجارة المناطق الاستوائية من مصدرها ، وقد نجحوا في القضاء على هذه القوافل نجاحا كاملا حتى اننا اليوم ونحن نتحرك في هذه الطرق المهجورة ، احسنا بما يشبه الرهبة ، وقد اخذت هذه الاشباح المرتدية الملابس البيضاء والاثر الباقي من رخاء وعز قديم تحيينا في صمت .

وشكراً للتعطيل الذى سببه المغيرون ، فقد اختصرت الزيارة الى النصف ، ورغم ان درجة الحرارة كانت تتراوح بين سبعة وأربعين ، وستين درجة مئوية فقد اخذنا نتجول في البلدة والواحة في الصباح الباكر والمساء ، دائماً بصحبة « جونى » و غلام يحمل آلة التصوير وحارس مدجج بالسلاح قالوا انه لحراستنا ، ولكن ممن ؟ لم نستطع ابدا ان نتكهن .

وفي حوالى الساعة الخامسة، وفي جو الصباح المعتدل نسبيا اخذنا نطوف في الواحة ذات الحمسين ألف شجرة نخيل ، نرى النساء الوطنيات وهن يغسلن الملابس ويدردشن عند المياه الرائقة الباردة والتي تضخ في الجداول عن طريق اكثر الآبار غرابية . وفي ايام الازدهار كانت أيدى العبيد تكبل مع الروافع الخشبية الطويلة خلف حوض استقبال المياه بطريقة تتيح للقرب الست او الثمانية ان تفرغ ما بها في الحوض العام في حركة منسقة وهو عبارة عن شجرة نخيل تم تجويفها .

واليوم حل محل النوبيين العمالقة ، مجموعات من ستة اعراب ، يظهر عليهم الارهاق مع كل حركة رفع او خفض لاروافع الضخمة ، وتزود الآن ثلاثة من هذه الآبار البلدة والحدائق واشجار النخيل بمصدر ثروة من الذهب السائل .

ولدى عودتنا الى البلدة وتغلغلنا في وسطها وجدنا طريقا منعشاً تحت السرايب المطلية باللون الابيض والتي يدخلها الضوء والهواء من فتحات بعد كل مائة ياردة. ولهذه القرى الصحراوية سحر فريد في نوعه فالبيوت مشيدة بالطوب الاحمر الرملى المحروق، وقد تعلمنا ان نحب الذباب الذى يلدغ المتسكعين منهم وحتى في « غدامس » فإن الازقة المتعرجة المتشعبة التى تحل محل الشوارع، فانها تؤدى الى ميدان القرية وهو مكان مكشوف دون اشجار ، تغمره اشعة الشمس والرمال ، وعلى احد جوانبه توجد دائماً الحانة بدل المقهى حيث يجتمع شباب القرية الرياضى ليحتسوا القهوة او عصير الرمان المخمر وللعب الدومينو .

وقد خصص الصباح دائماً للتجول والتصوير والرسم لهذا فقد نظم لنا « جوني » ان نشاهد ونصور ، لأول مرة الرقص الوطني الذي تؤديه الراقصات من الزنجيات السودانيات ومن الطوارق ، لقد اتحفنا الطوارق ، بالفعل بمشاهد كالحيال في « درج » ولكنها لا تقارن بما قدمه لنا زعيم الطوارق لصديقه « جوني » ففي الرابعة عصر ثاني يوم ، ظهر الزعيم لدى الحصن ، وهو ملثم تماماً بالسواد ومرتدياً نفس الملابس الفضفاضة الأرجوازية اللون التي ارتداها آخر مرة حين ذهب للترحيب « بالدوق ابوليا » وقد صحبنا في موكب رسمي الى القرية حيث اجلسنا على افخر السجاد والوسائد ثم ظهرت النساء في أبهى حللهن ، مثل شيخهن ، من وراء الخيمة المصنوعة من وبر الجمل ، يلمسن اصابعنا بالتحية ثم يجلسن في دائرة كاملة على بعد اثني عشر قدماً وهن يحملفن فينا، وحين اجتمع عدد كبير منهن اخرجن آلات غربية الشكل، صدرت عنها اصوات اكثر غرابة ، وكالما بدأ العدد يتكاثر اشترك في العزف عدد اكبر حتى وصلنا الى قمة العزف بوصول رجل عجوز يصحب ثلاث فتيات رائعات الجمال اشار لهن ليبدأن الرقص دون حجاب ، امام آلات السينما .

وفي اليوم التالي قدم شيخ البلد لدعوتنا لرؤية مشاهد تمثيلية تؤديها راقصات زنجيات نراهن لأول مرة ، وحين ذهبنا الى هناك وجدنا حوالى مائة امرأة في الفناء المكشوف ، وقد ارتدين ثياباً جميلة ووضعن حول جباهن شرائط غير محبوكة تتدلى منها اقراص



غدامس : احد الشوارع

رقيقة من الذهب ، كما يتدلى من آذانهم وأنوفهم حلقتان يتراقصان ويهتران . وحين خلعن الاحزمة الواسعة ليسهل عليهم الدق على الطبول ، شاهدنا الاساور القضيية او الذهبية الضخمة ذات النقوش المعقدة ، والتي تغطي المسافة من الرسغ الى المرفق ، وبغض النظر عن الثياب الغربية الصارخة والحلى الخشنة ، فان سلوك هاته الزنجيات كان الى حد كبير كسلوك مثيلاتهن في امريكا في الاجتماعات الدينية ، وقد اخذت اجسادهن تهتر وترقص على ايقاع الموسيقى اشد واقوى موسيقى الجاز الامريكى.

« دورثى »

غدامس في ٥ اكتوبر

أهلى الاعزاء

لقد بدأنا نفيق من التكريم الذى يفوق العادة والشرف العظيم الذى اولاه لنا قاضى من قضاة طرابلس ، فقد دعانا لتناول الشاى في مقره ، وحضر ابن القاضى الاكبر الى الحصن ، فذهبنا ومعنا « جونى » عبر سراديب البلدة حتى وصلنا الى ممر مظلم ، فكان هذا هو مدخل قصر علاء الدين ، وقد اضئ الممر من الداخل بمصابيح صغيرة من الفخار معلقة على الجدران، لها نفس شكل وحجم المصابيح الرومانية القديمة بل لقد احتفظت بنفس الذبالة البدائية التى ترسل الضوء الخافت ، وبعد ان وصلنا الى نهاية الممر صعدنا بضعة درجات لنجد انفسنا في حجرة مفروشة بطريقة لا يمكن ان يفكر فيها إلا عربى . فالارض غير المستوية قد غطيت بأندر انواع السجاد القيروانى ورصت الوسائد الحريرية المزركشة او المصنوعة من الجلد حول الجوانب ، أما الجدران والسقف فقد طليت باللون القرمزى الفاقع ، وبداخل الجدران دواليب ذات ابواب مزدوجة تشد انتباه الشخص الاجنبى على الفور ، نظرا لوجود ملعتين حديديتين شديتتى اللمعان معلقتين في مقبض الباب بعقدة من شرائط الشاش الاحمر اللامع ، ومسايرة لهذا الاسلوب الفريد في التنسيق فان النوافذ وهى على شكل مشربيات وموجودة في أعلى جزء من الجدران قد زودت بضلف مزدوجة حاجبة للضوء وقد علق على مقبضها ايضا نفس العقد من الاشرطة المثبت بها الملاعق اللامعة .

لقد عمدت الدهشة السنتنا فعلا اعجابا بما وقع عليه نظرنا حين نخطينا عتبة الباب ، فقد اخذنا ندور بأعيننا حول الجدران مبهوتين . وانطلقت عبارات الاعجاب مما سر له مضيفونا ، وعلى الجدران الحمراء واسفل السقف رصت صفوف من الصوانى الكبيرة من النحاس المطروق ذات رسومات متداخلة معقدة . وتحتها كانت صفوف

ممائلة من الأواني والاطباق النحاسية او المطلية بالقصدير . ويصدر رنين عن هذه الصفوف المبتكرة وترسل ومضات وبريق منعكس من ضوء المصابيح الصغيرة العديدة ، فتبدو تماما كمئات المصابيح المضيئة والتي تعلق في شجرة عيد الميلاد . وعلى ارتفاع فوق رؤوسنا وبدلا من صفوف الصواني والوانى علقت قطع المرايا من كل شكل وحجم وطرارز فبعضها مجرد مرايا زينة وبعضها مرايا معقدة من طراز عهد النهضة . كذلك انتشر بينها بعض السلال الجميلة الزخرفة واسفل كل هذا ونهاية له ثبت شريط صلب يمتد حول الجدران في لون البطاقات البريدية وقد نقش عليه قصة حياة وممات محمد وما قاله عن الجنة ، واخيرا واسفل كل هذا وعلى ارتفاع ستة أقدام من الارض تطلعت عيوننا في عجب الى صفين من شماعات الحائط ، وكذا نظن ونصور انفسنا في فصل مدرسى بأمريكا وان الجرس لا يلبث ان يدق ليوقفنا من هذا الحلم ولكن لم يدق أى جرس ، كان صوت مضيفنا هو الذى عاد بنا الى الواقع .

وفي وسط الحجرة امتدت منضدة مستطيلة وحولها اربعة مقاعد تطوى وتفرد ، وقد دعينا لنجلس على اثنين من هذه المقاعد وجلس معنا اكبر وأهم اثنين من مضيفينا ، وبعد ذلك وبطريقة تلقائية جلس الرجال الخمسة الآخرون القرفصاء على الوسائد القريية ، وما ان اتخذوا اماكنهم حتى ظهر اثنان هما اكبر الابناء فوضعا امامنا اكوابا طويلة من عصير الرمان اعقبوها بأكواب ممائلة من لبن جوز الهند ، وبعد ذلك ظهر ابن ثالث ووضع على المنضدة ستة اطباق ملأى بكل انواع البلح واثنين بالتين وثمانية بانواع من الكعك وعشرة اطباق ملأى بأنواع مختلفة من الحلوى الوطنية ، وبعد ان تذوقنا الشراب والبلح والكعك والحلوى واعربنا عن اعجابنا بها جميعا ، رحبت معدتانا بالقهوة المغربية الساخنة التى عاد بها الابن الاكبر وهى عادة تقدم آخر كل طعام ، فلما انتهينا من احتسائها قمنا نتأهب للرحيل ، ولكن مضيفنا قاطعنا قائلا ان سيدات البيت سيستقبلتنا في الطابق العلوى . وعلى هذا فقد صعدنا الى هناك لنجد انفسنا في عالم الحرير فوق السطح المشمس ، المحاط بسور ذى شرفات وفتحات تطل على البلدة من فوق اشجار النخيل ، واستقبلتنا سيدات البيت الاربع في بشاشة وكياسة ولطف لا يقل عن أى استقبال رأيناه في حجرة استقبال اوروبية ، ثم قادتنا الزوجة الاولى فأجلستنا تحت مظلة على مقعدين وضعا فوق منصة في نهاية السطح فكنا كالجالسات على العرش ، واخذن جميعا يتحسسن احديتنا وثيابنا الشفافة ، والقبعات القش التى كنا نلبسها ، كما اثار شعر هيلين الاشقر اعجابهن الشديد ، ولكن حين وجدن ان حلينا هى اساور وعقود عربية كان الاهتمام متبادلا بيننا وبينهن ، فسرعان ما مدت الاذرع لئرى الثروة التى تلبسها كل منهن من الذهب والفضة ، وفي تلك الاثناء انتشرت الانباء عن وجود الروميتين الشابتين فوق السطح فسرعان ما يسمع من كل الانجهاات على اسطح المنازل

القرية حيث الاقدام الحافية ، لقد امتلأت . الاسطح بالنسوة في ثياب زرقاء يتسمن لنا ويرسلن القبلات في الهواء ويهتفن بالتحية ردا على تحيتنا باللغة العربية الركيكة .

وفي صباح اليوم التالى وهو آخر ايامنا هنا ، ادهشنا وسرنا ان نتلقى دعوة من مضيفنا في اليوم السابق لتناول الشاى في الضحى بمنزله بالواحة . وحينما وصلت الدعوة احضرها « جونى » بشىء من الفخر على هذا النجاح الاجتماعى قائلا « اتعلمون ان المرأة الاوروبية الوحيدة التى استقبلها القاضى وزوجاته كانت الدوقة « اوستا » وهى نفسها لم تر الحديقة التى ستزورها الآن » ولم يكن بد من ان تقطع ثلاثة كيلومترات ذهابا وايابا في هذه الشمس الحارقة ، وحين دوننا من البيت وجدنا طرازة يقرب من الطراز الوطنى وقد دخلناه عبر فناء قدر يعيش فيه الماعز والكلاب والدجاج والحمير في الفة تامة ، وفي مواجهة البيت « حديقة الله » وحين جلسنا في الشرفة ذات الازوقة نستمتع بالهواء المنعش ، كنا نطل على عالم من النخيل ، وكذا اشجار الفاكهة التى تظلل الحديقة التى تلقى عناية فائقة لقد غرست فيها الورود والازهار الصفراء وبعض الازهار المحلية التى نعرفها .

وسرعان ما هجرنا الشرفة السفلى ، وصعدنا الى السطح لنتمتع العين بأبهى وأجمل منظر للواحة رأيناه في غدامس التى تحميها على البعد سلسلة الكثبان الرملية الناعمة بأرتفاع ثلثمائة او اربعمائة قدم . . وعند منتصف السلم برز احد ابناء مضيفنا بالامس من حيث لا ندرى وقادنا الى حجرة واسعة ، كل جدرانها واراضها مغطاة بالقرميد القديم النادر اما السقف فعبارة عن عروق خشب منحوت مأخوذ من جذوع اشجار النخيل الهائلة ، وفي احد الاركان استقرت المائدة المألوفة المزدحمة بانواع المأكولات ، وقد جلسنا اليها ونحن نحاول ان نأكل بالطريقة المقبولة شيئا من اطباق البلح واللوز والكعك ونتبعها بأكواب الشاى ، اثنين من الشاى الاخضر والثالث بالنعناع وكنا نرفع ايدينا بالاكواب في كل مرة نحو مضيفنا على الطريقة العربية منمنين له الصحة بقولنا « صحة وعافية » ثم نحتسى الشاى في بطء وبصوت مسموع على قدر المستطاع اعلانا عن استحساننا لها ولجمال مذاقها .

دورلى

وعصر نفس اليوم بدأنا الرحيل آسفين وسجلنا في مذكراتنا الساعة الخامسة وخمس واربعون ، وودعنا الحصن وبدأت رحلة العودة ، ولم تكن ليلة مقمرة فسرنا حتى بدأ الظلام يشتد ، ورفضت الجمال ان تتحرك ، فأعدت الخيام ولكننا لم نستطع النوم لشدة البرد .

نهضنا يوم الثلاثاء في الساعة الرابعة والنصف متجمدتين وسرنا حتى بلغنا الساعة الحادية عشرة والنصف ، اذ ذاك اعددنا المخيم في احد الوديان ونحن نتعثر وقد تمزقت اقدامنا وبالصدفة فقد كان هونفس الرادى الذى قضينا فيه الليل في طريقنا الى غدامس ، وقد صادفتنا مشكلة تمزق قتب هيلين اذ كادت هى والجمل ان يسقطا ومع ذلك لم نقم خيامنا لقضاء الليل ، إلا في الساعة التاسعة حيث كنا كالموتى ، وحين استيقظنا كنا نشعر بالدفع فقد وجدنا الرمال تغطيها تقريبا ، إذ هبت اثناء الليل ما يسميه العرب بريح القبلى .

ولم نتحرك في اليوم التالى قبل الساعة والنصف ، وكنا حانقتين لاضطرارنا للاستمرار في السفر حتى الساعة الواحدة في قيظ الحر ، حتى نستطيع ان ندرك واحة نعسكر فيها لتناول العشاء لأول مرة منذ السفر في الخلاء ، وفي الساعتين الاخيرتين بلغ من شدة الحرارة ان عجزت الجمال عن السير ، وقد ثابر « جونى » على اعطائنا عصير الليمون والمشروبات الروحية والبيض النىء ، واخيرا اقمنا المخيم بجوار بئر ضحلة ، وقد بلغ منا التعب وشدة الحر حدا لم نستطع معه الى النوم سبيلا ، ثم استرحنا اثناء الزوبعة الرملية وسقوط قليل من المطر ، فلما كانت الخامسة بعد الظهر ، بدأنا الرحيل وجمع الخيم لتتم آخر جزء من الرحلة ، وقد بلغنا « تغطا » في الساعة مساء ، حيث كان الظلام حالكا ، وفي الحصن كانوا قد بدأوا يقلقون علينا نظرا لتوقعهم وصولنا في الصباح لهذا اطلقوا الشعلات المضئية وارسلوا فريقا للبحث عنا ، وكان « المقدم » قد بعث برسالة لاسلكية ليقوم فريق بحث وانا اذا لم نصل قبل حلول الظلام ، فلما وصلنا فعلا استقبلونا استقبالا حافلا فقد اصطف الضباط والجنود الايطاليون والعرب لتحتينا ومصافحتنا وظل الاسلكى مشغولا يبعث الرسائل مفيداً بوصولنا .

وقضينا اليوم الخميس في راحة ، ولكننا نمنا في ساعة متأخرة ، كما قضينا الصباح في غسل ملابسنا والاستحمام مرات ثم نمنا ثلاث ساعات خلال العصر لنقوم للاستحمام مرة أخرى ومع هذا فما زلنا نشعر بالرمال تلتصق بأجسادنا .

حصن غدامس في ٨ أكتوبر

أمى الحبيبة

هل تذكرين كيف حاولت ان اعلمك كيف تنطقين اسم هذه الواحة ؟ انها تماما كما نطقت بفارق واحد هو ان تستبدلى حرف الالف بحرف السين ثم تنطق بسرعة وقد قضينا بها آخر صباح هنا ، ومنذ الساعة صباحا وحتى الظهيرة ظل كل شئ ساكنا

من شدة قيظ الصحراء ووهج الشمس .

ولقد نظمنا طريقة مناسبة للسفر ، اذ نبدأ السير عند الغروب حتى يحل الظلام ، فنستريح حتى يطلع القمر ، لنستأنف السير حتى الساعة الواحدة او الثانية بعد منتصف الليل ، ثم نقف قليلا لنبدل من جاستنا فنختار وضعا اكثر ليونا واقل صلابة من تلك الحجارة المسماة « صنام الحمل » التي تحت السجاد ، وبالطبع كنا كمن يحاول النوم وسط سرك فالجمال تتحسس الحقايب الموضوعة وراء رؤوسنا بأنوفها ثم تصدر عنها اصوات كالآنين المخيف وهي تتحرك ، وفي الفجر قال «جونى» اننا كالدُمى الآلية وحين خلعنا البرانس بدا مظهرنا لمظهر المفتى ، بشعره المنكوش من تحت طاقيته ، وقد احضرت لنا اقداح القهوة السوداء الصغيرة وبعد ذلك استأنفنا الرحيل مرة اخرى حتى بدأ الحريشند حوالى الساعة الحادية عشرة ، وكنا دائما نفكر في حياتنا اثناء النهار ، كما كنا نعد للسير من جديد عند الغروب ، وانا شخصيا افتقدت الغناء المألوف عند رحيل القوافل بالجزائر حيث يصرخ الكل بأعلى صوته وتطلق البنادق لطرد «الارواح الشريرة» ونظرا لقرب النهاية فقد انطلقت انا و «جونى» في الغناء في آخر ليلة .

وخلافا للعادة لم يأمرنا الضابط بالتوقف رغم ان «جونى» كان يحس بالارهاق الشديد ، ان الاغاني التي علمها لي بالإضافة الى ما سبق ان حفظته من بلاد شمال غرب افريقيا قد كونت لدى حصيلة لا بأس بها من الاغاني والمواويل ، ففي الصحراء كلها تجد مواويل الغجر متشابهة ولكن اغنيات الحرب مختلفة تماما ، أما أغنيات الحب فأنها اقصر كثيرا هنا ، وقد عسكر الرجال مع الجمال غربى الحصن ، وقد حجز للضابط مكان خاص بالحصن نظرا لأنه ايطالى ، اذ كانوا عادة ينضمون الينا حينما نقرب من أى بلدة ، ويبدو عليهم السرور والابتهاج باعجابنا بكل شيء ، كما يضحكهم ويليههم ان تقبل أناملنا اذا قام أحد كبارهم لمصافحتنا ، ومفتاح هو المسئول عن رعاية القافلة وهو بحب ناقته ، ويبقى بجوارها طوال اليوم يطعمها أشهى الطعام فتدغدغ وجنته بشفته العليا ، وهذا غريب جدا لاني حاولت أن أعطي المهرة بعض البسكويت فأخذت تدغدغ وجنتى ويدى أيضا .

لقد كنا نتظاهر بالياقة الصحية ولكن هذا كان تمويه في تمويه ، فالحقيقة ان اجسادنا مقرحة وتوئنا بل اننا لنجد صعوبة بالغة في الجلوس بل وحتى في الابتسام ، وبعد كل ما سمعناه من الروايات عن المغيرين فلم تقع اعيننا حتى على أثر واحد منهم ، ومع ذلك فان «غدامس» بجدرانها المشيدة بالطين الاحمر ، وشرفاتها البارزة الغربية وشوارعها المظلمة ، جديرة بكل الآلام التي نعاني منها .

وكما في دمشق فان غدامس واحدة من أقدم المدن في العالم وتبدو كذلك ، وكانت في العصور الغابرة محطة على طريق القوافل بين « طرابلس » و « كانو » اعظم طرق قوافل التجارة عبر الصحراء ، ولكن بسقوط « قرطاجنة » ووقوع هذه المناطق الشاسعة تحت حكم روما - عين « كورنيليوس بالبوس » الاسباني الأصل حاكما عليها ، وفي عام عشرين ق.م. قرر ان يشن الحرب على « الجرامنت » حلفاء هيرودت ويقول « بليني » انه استولى بعد ذلك على بلدة « كيداموس » اى « غدامس » وعلى « جرمه » في منطقة فزان .

وقد قطعنا عدة اميال من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل ونأمل في نفس الوقت ان نكون قد حصلنا على افلام سينمائية جديدة رغم شكنا في ذلك ، ان جونى يعرف كل فرد في المدينة ومما يسرهم كثيرا ان تحييهم بلغتهم « نهارك سعيد » و « كيف حالك » و « بالسلامة » اما القاضى فانه يتبعنا دائما ويحوم حولنا كالطائر ، ولو خيرنا لفضلنا ان نكون لوحدها دون هذا الموكب ، فقد عانيت كثيرا حتى اتم بعض الرسومات التخطيطية . . فقد اختار ركنا ظليلا واجلس وحيدة إلا من الحارس وظله ، واحاول ان اضع بعض اللمسات والخطوط لهذه الشوارع القديمة قدم الزمن نفسه، ولكن ما ان تنقضى ثلاثة دقائق حتى يتجمع السكان حولي ويحيطون بى .

وهذه الشوارع حتى في ظلامها ، أخاذا أنها ضيقة ومرتفعة والاقواس السداسية الجوانب من الطراز السائد قبل الطراز المغربى وهى ارفع في ذوقها الفنى . اما النساء فيرتدين السواد غالبا ولسن دائما محجبات ويعلقن فوق شعورهن قطعة فضية وأغلب الظن انها تحمل آيات قرآنية .

ان حفل الشاى الذى اقامه لنا القاضى كان ممتعا ، لقد بهرتنى مجموعة المرايا لدرجة ان « دورثى » اضطرت لأن تلفت انتباهى واراد على اسئلة القاضى ، اما الزوجات فكان لطيفات وقد كسون انفسهن بالحلى الذهبية والاساور التى تصل الى المرفقين، وكذلك سلاسل معلق بها قطع النقود القديمة يضعنها حول رؤوسهن ويلبسن صنادل محلاة بأشرطة ذهبية ، ومن الغريب ان الخدم يتكلمن الفرنسية فقد جاءوا على ما اعتقد مع القوافل من المناطق الافريقية التى تحت السيطرة الفرنسية،والتي لاتبعد باكثر من ستة كيلو مترات .

وقد قدمت لنا نساء الطوارق، والزنجيات مشاهد كالخيال، ولا آسف على شىء قدر أسفى على ان آلة السينما لا تسجل الرائحة ايضا، اذ لو انها فعلت لاكتملت الصورة الخيالية « وشيخ الطوارق شخص مهيب ، محجب تماما بالسواد يرتدى ثيابا قرمزية

لامعة مزركشة بأسلاك الفضة و" يحضر الى الحصن في اى وقت ، ولاشك ان معلوماته
عن النساء البيض تزداد في اطراد ، وقد كان لطيفا جدا معنا .

ومساء امس قدمت لنا الارتريات مشهدا خياليا في صحن الحصن وفي ضوء القمر ،
ولكننا لا نعتقد ان الراقصة كانت في مثل براعة تلك التى في « تغطا » .

هيلين

نالوت في ١٧ أكتوبر

أمى الحبيبة

كم نحن سعداء لمغادرة « تغطا » وكم يبدو لنا ذلك الحصن المبنى من الطوب الرملى
جميلا ، لقد انقذ « جونى » حياتنا بانخامنا بالبيض النىء والمشروبات الكحولية، حين
كانت درجة الحرارة تصل الى مائة وأربعين درجة فهرنهايت، حتى ان الجمال نفسها
كانت تعجز عن الحركة ، وناقضى اللطيفة « مبروكه » تدور برأسها نحو ساقى اليسرى
وتقوم بحركات راقصة ، مرة الى هذه الناحية ومرة الى الناحية الاخرى ، وهى ناقة
جميلة أوتى بها من واحة اوجلة يا إلهى ان الحرفطيع . ! !

لقد بقى لنا يوم واحد للراحة وغسل ملابسنا ، اننا نستحم ثم نعود فنستحم، ولكننا
امضينا معظم الوقت مسترخيتين على الكراسى مجرد جلوس لا نستطيع حتى ان نفكر
وصباح الخميس غادرنا المكان في الخامسة في عربة البريد المتجهة الى « سيناون » رغم
اجهادنا، ولكن على الاقل استطعنا ان نجلس وان نتناول شىء من الطعام ، وحين كنا
على بعد نصف ساعة من « سيناون » اخفيت شيئا من المياه في الشاحنة . وفجأة ظهر
من وسط كتبان الرمال ثلاثة من الهجانة المحجبين وتقدم الراكب الاوسط نحونا ونزع
حجابه، فظهر انه ضابط الهجانة المعروف لدينا، والذي اهدانا بعض المشروبات وبعض
البيض الطازج، وبذلك استطعنا في ثلاثة دقائق ان نستمتع بأكلة « شهية » وكان هذا من
حظنا اذ كانت الساعة قد بلغت الحادية عشر والنصف، ولم نكن قد تناولنا شيئا سوى
قدح صغير من القهوة السوداء في الساعة الرابعة صباحا وعند الظهر دخلنا الفناء المألوف
لحصن « سيناون » لنستقبل استقبالا حافلا .

حتى « باستون » جاء من نالوت ، وبعد القيلولة اصطحبنا الضابط الذى كان
يحمل زجاجة خمر معه الى الواحة حيث مقر عمله، واخذنا الى حديقة غناء انتشرت على
ارضها الاكلمة واعداد هائلة من الوسائد كما كانت آتينا القهوة والشاى يغليان ، فشربنا

الشاي بالفول السوداني ، والقهوة العربية ثم دخنا السجائر ، واخذنا نردد الكعك والحلوى حتى الغروب .

وفي صباح اليوم التالي توجهنا الى نالوت بشاحنتين ، وباله من حظ طيب لقد كان الجنود في عربتنا ذوى اريحية وفي منتهى الصبر ، فقد كان علينا ان نحمل آلات التصوير من ان تتحطم . وقد ركب « جوني » و « باستون » بالسيارة الاولى ، فسارت شاحنتهم لمسافة بضعة كيلو مترات ثم رأيناها تقفز فوق حفرة وتميل ناحية الرمال ، وفي الحال تنطلق البنادق ، وبعد فترة تنطلق البنادق مرة اخرى ثم يسود السكون ، واخيرا تحولوا نحونا ، واذا بنا نراهم يحملون غزالا ومع اننا نحس لحم هذا الحيوان الجميل ، الا اننا شمناه من كثرة تناوله .

اما الشاحنة الثانية فقد انفجر فيها اطاران ، وما ان اعطيناهم اطاراتنا الاضافية ، حتى انفجر اطاران في شاحنتنا نحن ، ولم تكن قد بقيت أية اطارات اضافية ، لهذا جلسنا على الرمال نكاد نفجر غيظا ونكاد الشمس ان تشوينا ، واخيرا ادركناهم وهم يتناولون الشاي ، وبعد المزيد من المشاكل ، وتناول آخر ما لدينا من الساردين والبسكوت ، وصلنا نالوت حوالى الساعة الثالثة ونحن جدد متعبين ، وهناك — للمصادفة الجميلة — قابلنا اصدقاء العام الماضى ، من الضباط الثلاثة الضابط الطيب ، ورودى والشرطى ، وزادت فرحتنا حين صحبونا الى فندق « الجراندا اوتيل » وهو مبنى فخم وبه اربع حجرات نوم وحجرة طعام هائلة ، ومطبخ كما يمتاز صاحبه باللطف ، وفي نالوت كان شعورنا بشعور العائد الى سكته .

وانى لسعيدة بشعري الطويل ، فبعد اسابيع قضيناها في الصحراء ، بدت « دورثى » بشعرها القصير ككلب البودل المجعد ، وحين وصلنا الى نالوت كان واضحا ان اول شيء طاف بخاطرنا هو قص شعرها وقد ابدى احد الضباط استعداداه للقيام بعمل الحلاقة لهذا فقد حضر في الثالثة بعد الظهر ومعه المقص والموس وما كينة قص الشعر ، وبالفرحتنا ! ! لقد وضع دورثى في حجرتى (ولست ادرى لماذا اختار حجرتى) ثم لفها بملاءة وبدأ يعمل بهمة ، واخذ الفراء — أقصد الشعر — يطير ، وظل هو يعمل لمدة اربع ساعات ، وفي الساعة السادسة احضر لنا صاحب الفندق بعض مشروبات باردة ، وهو ما كنا في اشد الحاجة اليه ، فأنا شخصيا كنت قد تعبت رغم انى لم اعمل شيئا ، والى هنا كانت « دورثى » قد اتخذت شكل الجرو المكسيكى النحيل الامرد ، إذ لم يبق في مؤخرة الرأس اى شعر على الاطلاق فقد حلق عن آخره ، اما من الامام فقد برزت خصلة كثيفة على طريقة قص شعر الضباط الالمان .

وفي السابعة إلا ربعا صرخت اطلب منها الخروج حتى يستطيع ان ابدل ثيابه ،

وإثناء العشاء امضينا وقتنا صاخبا، ونحن نناقش هيئة « دورثي » الغريبة وقد روعنا اقتراح الضابط « فوسا » بأن يكمل صاحب التزل باقى الحلقة ، فقد كدت ان اصاب بالانهيار اما « دورثي » فكانت قد انهارت فعلا .

وفي الصباح ظهر صاحب المنزل، وفي بضعة دقائق سوى الشعر والخصلة الامامية المنفوشة الى حد ما ، ولكنه بالطبع لم يستطع ان يضع على مؤخرة رأسها شعرا ، ولا حاجة بى للقول ان « دورثي » تضع على رأسها القبعة كلما كان ذلك ممكنا مع استعمال عدد من المشابك الافرنجية داخل القبعة ، حتى لا تترلق الى ذقنها .

اما الضابط الطبيب فقد كان يحب ان يرسم ، فقد دخل الحجرة والقي نظرة على رأس « دورثي » واصلح من وضع المونوكل ، واخذ يدور حولها في جدية تامة ثم توجه الى « الحلاق » فمد يده اليه مصافحا دون ان تصدر عنه اية ابتسامة ، وقال ان هذا مدهش حقا ، اننى لا ادرى كيف فعلت هذا « ثم خرج متسائلا .

ولمدة بضعة أيام لم نفعل شيئا سوى ان نقضى الوقت في الراحة ونستمتع بالحياة ، فلم يكن هناك داع لان نندفع عند الفجر نحو الواحة لتصوير بئر مستعمل او شيء من هذا القبيل حتى لا نشعر بوخز الضمير ، وفي اليوم الاخير وصلت قافلة بها نساء واقارب الجنود الليبيين المقيمين في « نالوت » . . وخطت الرجال وكان بها اربعمائة جمل وناقة عادية (ليست مهارى) تحمل زادهم وادواتهم من خيم الى الكلمة الى الكسكى والغلايات، وادوات منزلية اخرى غريبة الشكل فكان منظرا جديرا بالتصوير ، وعلى ظهور الجمال جثمت النساء وبعض الاطفال وهم جميعا في غاية اللطف ، وقد صحبنا الحلاق في الشاحنة لتقابل معهم لدى شروق الشمس ، ولكن الضباب اللعين لم يمكننا من أخذ صور ، لقد سال لعابنا من جمال الحلى ، وبينما اخذت الشمس ترتفع في كبد السماء كنا نسابق الريح حتى نياغ افضل منحني لتتمكن من تصوير منحنيات الجبل السفلى ثم ندور فنصور المنحنيات العليا ، وقد استمر مرور القافلة مدة خمس ساعات . وقد جثمت « دورثي » على صخرة عالية تطل على الطريق ، وجثمت انا على قمة اخرى ، واخذت الجمال تمر وتميل نحوى بطريقة خطيرة ، ولكن الضابط « فوسا » كان يسوقها بعيدا باشارة من عصاه بينما يوخزها الضابط الطبيب بعصاه في الجنب ليمنعها من ان تقذف بى من مكاني الذى لا يزيد عرضه عن ستة اقدام .

وكانت هذه القافلة تبدو وهى تخترق هذه المنحنيات ككتبان ملون بكل ألوان قوس قزح . فالنساء يرتدين الاحمر الفاتح والازرق والقرمزي، وحين يقتربن منا يتسمن لنا ولكن الاطفال الصغار كانوا يحملقون فينا في خجل ، بينما يجرى الغلمان في كل

مكان حولنا، وقد أثار فضولهم واهتمامهم آلات السينما فبدأوا يتشاجرون للحصول على علب الافلام الفارغة ولكنهم في منتهى اللطف .

كان اليوم عيد ميلادى فدعانا الضابط الطيب لتناول الشاي في حجرته ، وبعد العشاء اعد الحلاق شرابا معروفا في موطنه ايطاليا وهو مزيج من البيض والحليب معا ، وقد جعلنا للحظة نفقد توازننا، ولكننا احسنا بعد ذلك بالحيوية والنشاط ، وقد رقصنا حتى الفجر مع فترات من الراحة نتناول فيها المشروبات المهدئة ، فلما كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل بدأت الوليمة فمدت مائدة طويلة عليها الكسكسى الذى قام بصنعه رودى ، والمكرونة التى قدمتها مدام « روبرتى » وهى الزوجة الوحيدة لاحد الضباط في الموقع وعصيدة الفول السودانى وقد قامت بعمله زوجة شرطى البلدة ، وانتشرت وسط هذا العديد من انواع المشروبات المختلفة ، ولن استطيع ان افى هؤلاء القوم حقهم من الشكر ، كما لن استطيع ان انسى تلك الوليمة ، وكانت هناك فرقة موسيقية كاملة، كل عازفيها من الضباط الذين ظلوا يعزفون حتى دميت اصابعهم لقد كان حفلا جديرا بافتتاح فندق كبير .

ونمنا فلم نستيقظ إلا في الظهر ، ثم نهضنا لحزم امتعتنا ، فقد علمنا ان شاحنة ستذهب الى « طرابلس » صباح غد ، ونحن نادمون على مغادرة « نالوت » فلن يملأ مكانتها في قلوبنا اى موقع آخر ، ولكننا متلهفون لرؤية بونجيم ، وبلوغ سيرنايكا قبل موسم الأمطار .

هيلين

نالوت في ١٨ اكتوبر

أهلى الاعزاء

ونحن نعود الى « نالوت » نشعر كأننا عائدتان الى وطننا ، ولما كان الضابط مريضا فقد انزلونا في مكان آخر ، فبدلا من القصر نزلنا بفندق « الجراندا أوتيل » ، لهذا خصصوا لنا نصفه فنحن سعيدتان ونشعر بالابهة والوجاهة ، فالدنيا حوض استحمام لكل منا تملأوه لنا زوجة صاحب الفندق بالمياه التى ستحضرها في زجاجات الشمبانيا الجديدة اللامعة ، وفي الليل نغير ملابسنا على ضوء المصابيح بدل الشموع .

وكان أمس عيد ميلاد هيلين، واذكر ان الاحتفال قد أنهك كليتنا والحمد لله ان اعياد الميلاد لا تحدث الا مرة واحدة في السنة ، لقد ظللنا نرقص حتى الفجر، مع فترات كذا نلتهم فيها الهدايا التى قدمها ضباط الموقع ، فكل صديق منهم قدم طبقا ، مما جعل الامر

ينتهى الى وليمة فخمة، التهمنا جميع ما بها ومع المشروبات ايضا وقد كانت الكلمات الايطالية التى نعرفها قليلة ، ولم نكن نستطيع ان نجيبهم بلغة صحيحة او مصقولة ولهذا رجونا « باستون » ان يعبرهم عن شكرنا ، ولكنه ما كاد يقف حتى اصيب بنوبة رقص ثم علمنا بعد ذلك ان « رودى » كان ينخسه بدبوس طول الوقت الذى كان يتحدث فيه .

وقد يخيل اليكم بعد قراءة هذه الرسالة اننا فتاتان لا هم لنا الا البحث عن التسلية والمتعة لا مصورتان كادحتان ، ولكن حقيقة ما اذا كان بوسعنا ان نفعل ؟ ان ترسلوا الى هنا فتاتين فهذه خطة محبوكة ، فلو اننا رجال ما كان الضباط قد اهتموا بأن ينظموا لنا حفلات المشاهد الخيالية ، ودرجة الحرارة تتأرجح بين عدد من ثلاثة ارقام ولكن بدعة فتاتين بالملابس الشفافة والمظلات تعتبر حدثا هنا جعلت كل انسان يبذل كل جهده ليكون لطيفا معنا ، فاذا كانوا مستعدين لبذل الجهد ووقت الفراغ من أجلنا فلا اقل من ان نعبرهم عن تقديرنا، بأن تكون روحنا رياضية وان نشاركهم الرقص في الامسيات التى يرغبون ، ولكن كم من المرات تمنينا ان يتذكروا ان عددهم عشرة وان لدى كل منهم فرصة للراحة بينما نحن الاثنتان ننتقل من راقص الى آخر طول الوقت.

دورثي

طرابلس مرة أخرى فى أكتوبر ٢٤

أمى الغالية

لقد غادرننا نالوت فى الفجر وكنا ، نتوقف لنطلق الرصاص على الثعابين التى كان يجمعها العرب ويعلقونها على الشاحنة من قبيل الزينة ، وقد وصلنا « جادو » متأخرين عن موعد غداء الضباط ، ولهذا تناولنا بعض المكرونة فى مقهى البلدة بعد ان قررنا الا نظهر فى الحصن ، ولكننا نسينا ان على السائق ان يحصل على تصاريح المرور وعلى هذا فقد اتجهنا الى الحصن بعد الغداء ، وفجأة تقابل الضابط « لوكا » قادما من يفرن هو وصديقه ، وقد اصرا على ان نتناول معهما القهوة لاستياهما من توقفنا بالمقهى ، وقد اغرونا آخر الامر ان نصاحبهما الى يفرن لنقضى الليلة بها . وفى اليوم التالى وصلنا « طرابلس » وارسلنا عدة برقيات عند وصولنا ، وقد وجدنا اكواما من البريد وبعض البرقيات ، وهو أول بريد تلقاه بعد الخطابات التى احضرها لنا « جونى » فى تغطا ومع هذا فقد قرروا ان نذهب فى الحال الى بونجيم رغم شعورنا بمنتهى التعب والارهاق . ومن حسن الحظ ان الحمى تناوبت علينا حتى نستطيع ان نتبادل وضع الضمادات الباردة كل للآخرى . وهذا مختلف عما حدث فى العام الماضى عندما

دعانا الضابط «دى بونو» الى حفل يقيمه الجنود الارتريون، وزيادة في التكريم امر سعادته بأن يكون لكل منا حارس، وقد رقص الجنود ووضعوا غطاءً عاليًا على الرأس وامسكوا بالرماح ، اذ يبدو ان هذه هي فكرة الشخص العادى عن افريقيا « وكانوا يرقصون في جماعات متشابكة على نغمات اغرب موسيقى يمكن تصورها ، وقد استمتعنا حقًا بما رأيناه اذ كان المحافظ لطيفًا معنا اثناء تناول الشاى ، فكان يترك اصدقاءه ليأتى ليحدثنا وباعتبارنا الاجنبيتان الوحيدتان بالمكان كانت العيون كلها مركزة علينا .

وبالامس وصلت سفينة تعج بالشباب الفاشيستي، فزينت طرابلس كلها بالاعلام ، وقد ساروا في استعراض في الشوارع اثناء الصباح فكان استعراضاً رائعاً ، كذلك سار الفاشيست الموجودون بالمدينة ايضاً، وهم بين فتيات وفتيان لاتريد اعمارهم عن ثمانية أو عشر سنوات . وفي المساء أضىء ديوان الحكومة بالانوار وعلق درع ايطاليا وشعار الفاشيست الملون فوق برج المبنى ، ومساء اليوم السابق نظم مهرجان لى « الميرمار » خطب فيه المحافظ، ولكن الحمى منعنا من الخروج ، وفي الثامنة من صباح اليوم وجدنا غلاماً عربياً ومعه سلة كبيرة ، وضعت فيها آلات التصوير وآلات السينما ، فسيستعرض المحافظ « دى بونو » في الثامنة والنصف كل الفاشيست المقيمون والزوار ، وذلك احتفالاً بالذكرى السابعة لدخول الفاشيست « روما » وحين وصلنا الى الميدان المواجه لقصر الحكومة وجدناه قد امتلأ للنصف تقريباً ، وهناك افسح لى سيدان لطيفان مكاناً لأضع فيه منضدة ومن فوقها مقعداً حتى أتمكن من التصوير ، وكان موقعا ممتازاً ولكنه ظاهر للعيان، اذ كنت على ارتفاع ثلاثين قدماً على الأقل ، ولكننى لم اهتم كثيراً لاننى بذلك اقف في مواجهة درجات القصر التى لا بد ان ينزل منها سعادة الحاكم وحاشيته .

وبدأت مجموعات الفاشيست تدخل الميدان واحدة بعد الاخرى ، بعضها دون جلبه وبعضها بمصاحبة الفرق الموسيقية وهم يلوحون بالاعلام ، اما الفتيات الصغيرات فكان في التنورات السوداء ، والقمصان والقفازات البيضاء ، اما الاحذية والجوارب والقفعات فسوداء ، وكان منظرهن بديعاً ، لكن الغلمان كانوا على العكس تماماً ، فالسراويل بيضاء قصيرة والاحذية، والجوارب والقفازات بيضاء . اما القمصان فسوداء وعلى الرأس قلنسوة الفاسست ، ومرت التشكيلات من كل الاعمار، واخذت المجموعات تتكاثر دقيقة بعد اخرى، حتى اصبح الميدان كتلة متراسة ، وعلى اليمين من سلم القصر وقف الضباط العاملون والمسرحون في ليبيا، والكل يرتدى السترات البيضاء المزينة بالكثير من النياشين وتمنطقوا بوشاح أزرق ، وسيف هائل مزين بشراريف فضية كثيرة . فكانت هذه الالوان الزاهية لافتة للنظر بلون المبنى القديم .

وبينما كنا ننظر ، أخذت الفرق الموسيقية تتبادل عزف النشيد الفاشيستي ، وفجأة انطلقت موسيقى الجيش ونلهر الحاكم عند مدخل القصر ، على قمة السلام وكان منظره مهيبا ، وهو ينزل السلم بتوذه ، وتوقف عند اسفل السلم ليحيى الجميع ، فقد كان الميدان يبدو كبحر من اوراق الشجر المتمايلة .

انها لفكرة ذكية ان يرسل هؤلاء الشبان لزيارة البلدان الاخرى ، ليتعلموا منذ مطلع حياتهم انه لا يوجد بلد أو شعب بلغ من الكمال ما يجعله يستغنى عن ان يتعلم شيئا جديدا من غيره من المدن او الشعوب وبالتأكيد فان « موسوليني » زعيمهم كان يدرك ذلك فقد كان ولداه « فيتوربو » و « برونو » ضمن الألف فتى الموجودين داخل هذه الساحة الكبيرة .

انهما صبيان ممثلتان وعلى خاق ويديان اهتماما كبيرا ، بكل ما يحيط بهما ، ان ثمن الشهرة لأبناء الدوتشي كان اكثر مما يحتمل اصغرهما ، فقد عبس وجهه فجأة ثم ارتقى بين ذراعى الضابط الفاشيستي مخفيا فيهما وجهه ، بعدئذ تقدم نحوه ضابط من ضباط القصر ، واخذ يربت عليه مشجعا ، ولكن ما ان انطلقت انغام النشيد الفاشيستي حتى انتصب الصبي كجندى ، ويده ترتفع في قوة بالتحية الفاشيستية رغم ان الدموع كانت ما زالت تترقق في عينيه .

هيلين

طرابلس للمرة الثانية في ٢٥ اكتوبر

أهلى الاحباء

غادرنا نالوت عند فجر يوم أمس متجهين الى طرابلس ، ولم تجد سيارة الضابط « الفيات » وقتا تنكسر فيه الا هذا الوقت ، لذلك ركبنا ونحن سعداء شاحنة أخذت تسابق الريح ، ولكن حين وصلنا « جادو » كان مزاجنا معكرا ، وروحنا المعنوية هابطة لدرجة اننا لم نجادلهم ، وتركناهم يقررون ان نقضى الليلة في « يفرن » وهى بلدة جميلة وواحدة من نقط الحدود التى شيدتها ايطاليا فوق اعلى قمة من الجبل ، وبالطريقة المعهودة اخذت السيارة تهدر وتدور في المنحنيات ، حتى وصلنا الى القمة واندفعت الى فناء الحصن عند الغروب بالضبط .

وقد وجدنا هناك كل الذين نعرفهم ، وقد جاءوا يسلمون ويرحبون ويراقبون رد الفعل للمفاجأة التى عملوا جهدهم لاعدادها لنا ، فلا بد انهم جردوا حجراتهم من كل شئ ليهيئوا لنا مكانا مريحا ، لقد اعطونا جناحا بالحصن ، وخصصوا لنا سلما خاصا

يؤدى مباشرة الى بهو به بابان على الجانبين ، يؤديان بدورهما الى حجرة نوم لكل منا ،
وكم اثار اعجابنا كل شيء ، فقد فرشت الارض الحشنة بجلود الغزلان ، وعلق على
الجدران السجاد وسروج الركوب . واذ جاء الوقت الذى نغير لهم فيه عن امتناننا
وشكرنا خائننا محصلونا الضئيل من اللغة الايطالية . ثم ارتدينا افخر ثياب المساء ومضينا
ونحن بهذه الفخامة والاناقة لزيارة النقيب « بوكا » وحرمة وكل من بالموقع ، ولما حان
موعد العشاء ، وجدنا كل الأكالات الشهية الاجنبية، حتى انتابنا احساس بالذنب ان
يكون اهل الحصن قد عاشوا على الخبز والماء لفترة ليتمكن تدبير ذلك ، وفي الصباح
الباكر استيقظ الجميع لتوديعنا قبل الرحيل ، وقد نجحنا في الوصول الى « طرابلس »
قبل الظهر ويا للمفاجأة الفظيعة ، لقد بلغ من شدة الحرارة، عند وصولنا اننا اندفعنا
صاعدتين السلم عبر الاستراحة ، ولم نتوقف الا برهة لنطلب مياها باردة ونمنا ، وكنا
ما زلنا بين النوم واليقظة حين ارسل السيد « ازالى » من يخطننا ان « العقيد فوليني »
على وشك السفر الى نالوت ، وفي الحال تركت كل شيء لاسطر رسالة شكر لكل
الضباط على المجاملات التى غمرونا بها حين كنا داخل البلاد ، بعد ذلك نزلنا الى قاعة
الطعام في ثقة زغم الملابس الشفافة التى كنا نرتديها ، فنوب هيلين يميل الى شئ من
الخلاعة ، اما ثوبى انا فقد قضيت على خلاعته بأن زودت الاكمام برقع كبيرة .

كل هذه المقدمة التفصيلية ضرورية لتوضيح ما حدث بعد ذلك ، فقد جلس قبالتنا
في قاعة الاكل « العقيد فوليني » ومعه ضابطان ، اما الغلام العربى الذى سلمناه رسالة
ليعطياها للمقدم « فوليني » فقد حياه الله بكاء غير عادى ، فبدلا من ان يسلمها له في
فندق « البرجو سافوى » لم يسلمها له إلا وقت دخولنا قاعة الاكل ، ولما كانوا قد انتهوا
من تناول الحلوى فقد استأذن من رفيقيه واقبل للحديث معنا .

ولما انتهينا بدورنا من الاكل، وذهبنا الى البهو لتناول القهوة ظهر العقيد مرة أخرى
ليقدم لنا ضابط مدفعية، يتحدث الامريكية بطلاقة، وقد تبين انه عمل ملحقا عسكريا
بسفارة ايطاليا بواشنطن، وفي الحال : نرنا الاثنين لتناول القهوة والمشروبات معنا ،
وسرعان ما جلسنا نثرثر وندردش وحين احضرت القهوة ظهر ضابط ثالث وهو شاب
وسيم ضخم الجثة، وقد غمغم ضابط المدفعية بشئ وهو يقدمه لنا ، وابتسمنا ، فرحين
بالقادم الجديد فقد كان ، شكراً لله ، يتكلم الانجليزية . وقد وجدنا ان هذا القادم
الجديد يعرف « نالوت » جيداً بل ويتكلم عن رجاله من الهجانه وقال انه يرجوا ان
يكونوا قد ساعدونا ، وهو ما سارعنا لأن نوكد له .

ولما كان لدى كل واحد من الجماعة موعد ، فقد انفض الجمع وصعدنا نحن الى
حجراتنا. يغالبنا النعاس ، ولكن في طريقنا قابلنا صاحب الفندق، ووقفنا نسأله ان يرشدنا

الى شخصية الذى كنا قد علمنا انه حضر للبلاد اثناء وجودنا بالداخل، والذي كان الجميع معجبين ومتحمسين له وطرف الرجل بعينه وقال مبتسما .

- ولكنكم كنتم تتناولون القهوة معه .

- نحن ؟ كيف ؟ من ؟ .

- الشاب الطويل الذى انضم اليكم آخر الأمر ...

وطبعا بدلا من ان ننام فقد ارسلنا في طلب السائق ، اذ ما دام « دوق ابوليا » موجود هنا فلا يعقل ان اظل هكذا كالكلب البودل المجدد ، فوداعا ايها النرم .

آسفة جداً ، لقد حسبت أن هذه الرسالة ، ارسلت منذ مدة طويلة ، ولكننا كنا مرضى بالمalaria لدرجة اننا لم نستطع ان نفكر في شيء آخر . والحمد لله اننا لا نجد سياحا هنا الآن ، فان موسم السياحة في الشتاء واذا كان من الضروري ان نصاب بالحمى ، فلا شك ان هذا انسب وقت لها ، فقد كانت حالتى شديدة او اننى كنت اكثر شكوى من « هيلين » ولما كان « باستون » قد جاء من نالوت ليقضى اجازته ، فقد كنت اقضى صباح الايام التى تهبط فيها درجة الحرارة في الغسيل والحيطة ، اما اثناء العصر فقد كنت اخرج معه كحديثه عهد بالمجتمع ، لقد غمرنى بياقات الورد الذى كان يبعث بها في هذه الارض الصحراوية الجرداء وهى ما كنا نحسد عليه في الفندق .

وحتى الآن مازالت ساقاى ترتجفان من الضعف ، ولكن الطبيب وصف لنا دواء اكتشف اخيرا وهو حبات « البلازموكينا » اذ يقول انها تقضى على جرثومة الملاريا ، ويؤكد اننا نستطيع ان نسافر الى الشرق بمجرد ان تصل التصاريح .

اننا نستمتع منذ اربع وعشرين ساعة بعاصفة رملية ، فعلقت الترمومتر خارج نافذتى مرة أخرى . ومع هبوب الرياح فان الترمومتر العزيز ظل يرتفع حتى وصلت درجة الحرارة مائة وخمسة عشر درجة وتوقف عندها وقد بلغت الساعة الآن السادسة والربع ، ولكن الرياح ما تزال تهب فيمتلئ المكان بالرمال فلما مالت الشمس للمغيب هبطت درجة الحرارة الى اثنين وتسعين درجة بالرغم من ان الرطوبة عالية ، حتى اننا نحس ان درجة الحرارة هى لم تنخفض ، لقد انتهيت للتو من الاستحمام وقاع حوض الاستحمام ممتلئ بحبيبات الرمل ، كما اننا ننفض ملابسنا باستمرار للتخلص منها .

ظلت الريح تهب طول الليل ، استيقظنا صباح اليوم لئرى كل شيء قد غطى بطبقة رقيقة من الرمال ، وقد نالت هيلين منه الكثير ، لان الريح كانت تهب مباشرة على نافذتها فاضطرت لاغلاقها آخر الامر ولكن هذا لم يساعد كثيرا ، اذ ارتفعت درجة الحرارة

في الحجرة كما تسربت الرمال من النوافذ المغلقة وقد حضر « باستون » ليلة أمس وحاولنا الخروج ولكن كان ذلك مستحيلا ، وقد نجحنا فقط في الدوران حول المبنى مدة نصف ساعة ، لقد كانت قوة الرياح شديدة والحرارة عالية لدرجة جعلتني الهث ، وسفحت الرمال وجهي حتى دمي ، واجد عيني هذا الصباح عبارة عن كرتين من الدماء ، وحلقى يولني ، وقد امضيت نصف الساعة الاخير ، احاول ان امشط الرمال من شعري ، واغرب ما في الامر انني لم احس في حياتي بمثل الصحة والعافية التي احسها الآن ، وقد نمنا نوما عميقا .

ليني استطيع أن اعطيكم فكرة عن المنظر الذي اراه من شرفتنا ، ان جماله يؤثر في تأثيرا كبيرا ، فشكل الميناء كالمحارة ، واشجار النخيل والواحة من ناحية اليمين ومبنى الحكومة من اقصى اليسار ، وقد كانت امسيات هذا الاسبوع شديدة الحرارة امكن معها ان يقدم العشاء في الشرفة ، ولكن لن تتصوروا كم يروقنا ان نرى اشجار النخيل والواحة ومبنى الحكومة في ضوء القمر الكامل .

دورتي

الخميس في ٣١ أكتوبر

أمي الغالية

لقد غادرنا طرابلس فجر امس في السيارة الفيات التي قامت بمعجزات لتفادي الجمال والبغال المثقلة بالبضائع اثناء مرورنا بسوق الجمعة ، ان الطريق مرصوف هذا العام ولهذا كان السير فيه متعة .

وعلى امتداد الطريق بين طرابلس والخمس انتشرت المزارع والحدائق حيث كانت حتى عام واحد مضى ، لاتعدو ان تكون كثبان رمال ، وقد اوقف الايطاليون زحف الرمال بغرس نوع من الشجيرات بدأ ينمو لارتفاع قدمين ، وهي انجح فكرة لاقامة سد ، وحين تركنا طرابلس والشمس على وشك البزوغ فوق اشجار النخيل ، اتخذنا طريق الساحل واخذنا في الصعود تدريجيا حتى « وادي الرملة » على ارتفاع بضع مئات من الاقدام .

وقبل ان ننعطف فجأة الى الداخل متجهين نحو بطن الوادي ، امتد امامنا المنظر الرائع للكثبان الرملية البيضاء الناعمة ومن ورائها زرقة البحر الابيض المتوسط اللازوردية. وتوقفنا في الخمس نتناول شيئا من المشروبات مع المأمور، قبل ان نتناول الغداء في

المتزل الصغير ، وبعد ذلك قادونا الى حيث نبيت ولدهشتنا البالغة وجدنا متزلا كاملا به الخدم والحمام ، كل ذلك لنا ، كان الاثاث جميلا وقد زود البيت بالأكلمة الوطنية والوسائد ، والابسطة وهو ما اعطى لمحة جمال بالمقارنة بالجلدران الكثيبة .

وفي العصر ذهبنا الى « لبييتس ما جنا » وفيما عدا « سيريناىكا » فأننى اكون قد شاهدت كل اطلال شمال افريقيا ، ولا شك ان « لبيتر » تبرزها خصوصا من ناحية جمال التفاصيل الصغيرة ، ومن ناحية الموقع فقد افقدتها قربها من البحر روعة المنظر في « دوجا » بتونس و « جميلة » بالجزائر . ولكن الرخام الوردى المنحوت في الكنيسة وحده يساوى الزيارة ، وقد انشأها الفينيقيون عند سفح تلال مسلاته ، ويسمىها هيرودوت « تلال الآلهة » وقد تمتعت البلدة برخاء ملحوظ في القرن الثانى ، كميناء بحرى لواحد من اهم طرق القوافل الآتية من فزان ، اما لبيتر ٤٥٠ ق.م فقد كانت بداية الطريق الساحلى المؤدى الى قرطاجنة ، والحصن الذى حمى ليبيا من غارات البدو حتى نهاية القرن الثالث .

وحين سقطت تحت حكم القرطاجنيين استولى عليها « ماسينيا » في عام (مائة واربعين ق.م) وهو اقوى ملوك البربر ، ولما قام النزاع وطال بين « قيصر و بومبى » استولت عليها روما مع اويا (طرابلس) و « صبراتة » حيث تقدمت تقدما رائعا خلال القرون الاربعة من حكمهم . فأنشئت شبكة من الطرق الساحلية بين قرطاجنة ومنطقة طرابلس وامتدت من الغرب حتى « تمجاد » في الجزائر بل ولأبعد من هذا ، فوصلت الى « كوتا » واعمدة هرقل والى « ليكسوس » و « سالى » في موريتانيا .

وفي عام ثلاثمائة وستة وستين دمر الاسطوريين لبييتس تماما ولكنها استعادت مكانتها الى حد ما تحت حكم « جستنيان » في القرن السادس .

وتوالى الغزوات العربية حتى بلغت ثمان ، وكان آخرها في عام ستمائة وثلاث وستين حتى تمكن الحكام العرب ومن بينهم سيدى عقبة بن نافع ، مؤسس مدينة القيروان المقدسة وحسن بن النعمان الذى قضى على قرطاجنة ، وتمكنوا من طرد البيزنطيين من (ارض الغلال) ومحو المسيحية من افريقيا ، والقضاء نهائيا على آخر ما بقى من الحضارة الرومانية ، لقد قضوا عليهم جميعا ونهائيا في براعة اليس كذلك ؟ .

وتقدم لبييتس اليوم منظرا غريبا ومختلطا ، حزينا ومسلما في آن واحد ، ولكنها هامة في بعض الانشطة ، والقليل من الشوارع الهامة قد تم التنقيب عنها ، وقد ظهرت فيها الاحجار الجيرية المألوفة ، لقد اجلسونا في عربة صغيرة كعربات الملاحى يدفعنا حول المكان ستة من الاعراب وما تم يعتبر تقدما كبيرا هذا العام عن رحلة العام السابق

الشاقة ، وعند المدخل العصري ، مررنا من تحت قوس ذى جوانب اربعة مثل قوس طرابلس اما اروقة الحمامات فتنتصب فيها التماثيل على القواعد ، ومازالت في حالة جيدة ، ان الايطاليين يقومون بالحفريات في ظروف غاية من الصعوبة ، فالرمال الناعمة المتحركة تجرف في ليلة ما يكون قد تم انجازه في اسابيع لدى هبوب اهدأ نسيم .

وقد عبرنا الحمامات الى الساحة حيث مازالت اعمدتها تنتصب الى اليوم ، واخذنا نشق طريقنا وسط كثيب هائل تبرز منه على مسافات ، بعض الاعمدة المحطمة او جزء من جدار حتى وصلنا الى اعلى كنيسة وهى أهم مبنى في « ليتس » .

والجدران ضخمة ، وبالبهو الكبير قبة مزدوجة ، واعمدة من الرخام المنحوت تحت رائعا ، ومن مكاننا المرتفع كنا نرى العمال العرب ، وهم يقومون في صبر واثابة بحفر ما يبدو انه أعمال صعبة ، وعند باب الخروج مررنا ببقايا مدرج وملعب ، ولكن تماثيل ابولو انتقل من الحمامات حيث كان موجودا في العام الماضى الى متحف في طرابلس لينضم الى تماثيل « فينوس » و « ديانا » وهذا عين الحكمة ، ومع ذلك فقد افقدناهم جميعا .

ورجعنا الى « الخمس » فتناولنا الشاي مع المندوب « السيد دى كاسترو » وهو رجل مسل قضى هو واسرته سنين طويلة في الحبشة ، ثم اصطحبنا احد اولاد دى كاسترو الى مطعم من الزجاج ، ورغم احساسنا بالتعب فقد امتثلنا وذهبنا لمشاهدة عرض آخر في المسجد الصغير ، وهذا المسجد اكثر روعة وجمالا من مسجد « طرابلس » فالارض الحجرية مغطاة بالعديد ، من الأكلمة القيروانية ، وامام المحراب جلس عشرون شخصا القرفصاء في دائرة صغيرة .

وكان هؤلاء العشرون في حالة استغراق تام ، وبعد التمايل المألوف وترتيل اسماء الله يأخذ خمسة او ستة رجال في الترنج على الارض و الزبد حول افواههم ، ثم زحف احدهم ، الى مقام الولي ولسانه يدخل ويخرج من فمه في سرعة مذهلة حتى لم نكن نصدق ما نرى ، واخذوا يطعمونه عدد من العقارب الحية وان كانت اصغر مما رأينا في « مكناس » اما آكلوا الزجاج والمسامير فقد قدمت لهم وجبة وافرة منها ، وغادروا المكان حوالي منتصف الليل ، ومن الغريب اننا استغرقنا في نوم بلا أحلام .

دورثي

الخميس أول نوفمبر

أهلى الاعزاء

حينما غادرنا « طرابلس » امس كان منظر السيارة « الفيات » جديرا بالمشاهدة ، فقد حُزمت الحُقاب على ظهرها ورصت صفائح البنزين الاضافية ، ومحور عجلة اضافى على عتبة الابواب واحكم ربط كل شىء ثم تسلفنا نحن الاثنتين فحشرنا انفسنا في المقعد الخلفى وسط آلات السينما ، وادوات الاكل والاغطية ، بينما هروى « جوى » فجلس بجوار السائق في المقعد الامامى .

وحينما بلغنا لبيتس تبينا انهم في اجازة وان المكان مغلق فتركنا « جوى » عند المدخل وذهب يبحث عن المدير ، وانتهزت انا وهيلين الفرصة لنحكم غطاء رؤسنا ولنتستغرق في نوم عميق فوق الارض الحجرية . . مما أثار تسلية وضحك كل الاعراب الذين وجدناهم يحسلقون فينا في فضول حين عاد « جوى » بالمدير وايقظونا من النوم .

هل تذكرون المحاضرة التى القيت في العام الماضى عن « لبيتس » والتى حضرناها جميعا ؟ لقد قال ذلك المحاضر عدداً من الاشياء التى تذكرناها حين عدنا الى هنا ، وقد تأكدت من كل النقاط التى تكلم عنها ، ما عدا نظريته عن فعل القوى الطبيعية ، واعتقد انه ذكر انه لا توجد ادلة على وقوع زلزال في المنطقة المجاورة ، ربما ولكن على بعد ثلاثمائة ميل من نالوت يوجد مخروطان متشابهان كالتوائم تماما ، كانا يوما ما نشيطين ويقذفان بالكثير من الحمم ، وايضا فقد دمر احد الزلازل المعبد الاغريقى لأبولو في « سيرينى » مما يدحض افتراضه الى حد معين . ويمكننى ان اضيف ادلة اخرى ولكن الاسهل ان نختبر ذلك على الطبيعة ، لقد ردمت البلدة بأكملها تحت الرمال الناعمة ، وهى رمال متحركة دائما ، وحتى حينما وجد المنقبون جدراننا كاملة فإن الوصلات بين اجزائها كانت دائما غير ثابتة ، للدرجة انهم اضطروا لاعادة تركيبها ، اما حيث سقطت الاعمدة بجوار قواعد ها فعلى الأرجح ان الرمال آتت عليها ، وبالرغم من اننى اخذت أراقب بعناية تامة ، فان البلاط المنهار يبدو كما لو اسقط بفعل عملاق كان يلهو ، كما ان التلف الذى اصاب الزخرفة يمكن تفسيره بنفس الطريقة ، ولكن نظرية التخريب الجماعى المتعمد بالتفجير الديناميتى لا تصمد امام النقد والتحليل ، واذا كان الاتراك قد فعلوا ذلك اصلا ، فانهم يكونون قد فعلوا ذلك منذ خمسين سنة او مائة وليس قبل ذلك ، وفي هذه الحالة يكون هدفهم التخريب الكامل ، وعلى ذلك فانهم كانوا يستعملون كميات هائلة من الديناميت ، كمية كافية لان تحول البلدة الى انقاض ، لذا فاننى ارجح ان يكون السبب طبيعيا ، ولا يعدو إلا ان يكون بسبب هزة

ارضية بسيطة او بفعل حركة الرمال الدائمة .

وبالتأكيد فان لبيتس فريدة في نوعها فلم أر لها مثيلا ، واعتقد ان زلزالا كان قد دمرها أول الأمر ثم غطتها الرمال ، وعلى أى حال فان الحفريات لم تبدأ إلا عام ألف وتسعمائة واربعة وعشرون ، انه لشعور غريب ان نرى تلالا من الرمال تغطي اجمل المباني الرومانية التي وقعت عليها عيناي ، فهنا في مسقط رأس « سبتيموس سيفيروس » يبدو ان روما لم تستعمل سوى رخام كراة في المباني ، رخام ابيض ووردي واخضر فاتح ، لم تنحت به رسوم بارزة بل قطع قطعاً كبيرة ، واليوم وان لم تظهر منها الا الساحة . والحمامات والكنيسة ، فان لبيتس تلهب الخيال ، وتستثير الاعجاب وستكون بالطبع مثار اعجاب العالم اجمع يوم ان يتم كشف المزيد منها .

دورثي

مصراته في ١٢ نوفمبر

أمي الحبيبة

غادرنا الخمس امس في السادسة في طريق كان اصلا طريق قوافل ، وسرنا بين اميال واميال من اشجار التين الهندي وقد توقفنا في « زليطن » لتزور القبر الشهير اولى الله « سيدى عبدالسلام الاسمر والذى بنى عام ألف وخمسمائة واثنين وستين » . وخارج الاستحكامات وقريبا من الميناء قمنا بزيارة خاطفة للموقع الروماني ، « داريوك اماي » التي نخل الى انها كلمة عربية ، وأن موقعها ممتاز وقد نقلت من هذا المكان الفسيفساء والمناظر المرسومة بالحصن الملون الى المتحف بطرابلس .

واكملنا مسيرتنا حتى وصلنا الى مقر المأمور حيث تناولنا مشروبا ، ثم غادرناه الى مصراته وعلى طول الطريق رأينا مزيدا من الاطلال ولكن الطريق كان ممتازا وقد مررنا بمئات من الآبار ، وهى عبارة عن اعمده من الطين وفوقها عارضة من جذع شجرة نخيل ألثف حولها حبل مثبت في قرية من جلد الماعز من ناحية ، ومثبتة في جمل او بغل من الطرف الآخر ، ويصعد الحيوان سيرا الى الخلف ممرا منحدرًا ويدع القرية تتدلى في البئر .

وبالطبع كان هذا شيئا لا يقاوم بالنسبة لنا ، فأخرجنا آلاتنا واخذنا في التصوير مما ترتب عليه وصولنا متأخرين الى مصراته وبعد تناول القهوة خرجنا بصحبة المأمور وحاشيه من مساعديه ، وعميد البلدية ، وسكرتيه ، وجراح المستشفى ، وخمسة من الفاشيست وكلبين ، مما تسبب في ازعاجنا ، وكان هناك عسكري يسبقنا بحوالى عشرين . ياردة

يجار بالصوت معلنا عن قرب وصولنا، وهو ما لم يكن في حاجة الى اعلان فقد كان ذلك واضحاً جداً ، وكان من نتيجة ذلك ان نهض الجميع يحيوننا وقد زرنا اغلب الاسواق . ثم زرنا دار البلدية والمستشفى الجديد، والمدارس وثكنات الجند ، وأخيراً تركنا السيارة الفيات ، وسرنا الى « مصراته البحرية » حيث المنظر بديع والهواء منعش والمارنيا هي الميناء القديم خلال العصور الوسطى، وقد كانت مركزاً هاماً للتجارة بينها وبين «البندقية» خاصة في تجارة التمر والحصر والملح ، واليوم اصبحت « مصراته » المدينة الثانية في منطقة طرابلس من حيث الاهمية التجارية حيث يوجد بها اكثر من ألفى نول لصناعة السجاد وحده، اما الحصر المصنوع من السمار والسجاد اليدوي فيأتي من « تاورغاء ».

وقد وصلنا « مصراته » حيث تناولنا الشاي مع عميد البلدية وعروسه، وقضينا وقتاً مرحاً مع اسرته الكبيرة . . المكونة من احد عشر كلباً سلوقياً عمرها عشرة أيام .

هيلين

بونجيم في ٤ نوفمبر

أهل الاحياء

يمتد الطريق الى مصراته موازياً للبحر ، وتشبه كثيبات الرمال التي تفصل بيننا وبين البحر، تلك الاستحكامات التي صممها الألمان على طول الساحل البلجيكي ، اما في افريقيا فان هذه الكثبان التي بمحاذاة الساحل، تعمل على حماية السلسلة التي لا تنتهي من حدائق النخيل من الرياح الشتوية التي تهب من البحر الابيض المتوسط ، وفي كل مكان ينصب البدو خيامهم ذات الالوان، البهية المخططة حيثما وجدوا اكبر مساحة تحت اشجار النخيل تظلمهم من الشمس الحارقة ، ولكن حين تهب اعاصير الشتاء فان هؤلاء يبدأون هجرتهم الشتوية نحو الجنوب ، وبعد مصراته مباشرة تتغير المناظر الطبيعية فجأة . لقد تركنا وراءنا الواحات الظليلة اللطيفة، وسكانها من الايطاليين او العرب الودودين ، الى ارض يسودها الاضطراب ، فالجو غائم بسبب هبوب الرياح المحملة بالرمال من الكثبان غير المتماسكة، والارض التي تشقها وديان عميقة غير مطروقة، ليس بها من غلة سوى اكوام من الاسلاك الشائكة الصدئة المتشابكة ، وقد تذكرنا اننا مررنا بمثلها بين طرابلس وجادو في العام الماضي ، ولكن حين عدنا هذا العام وجدنا انها اصبحت ارضاً مزروعة ولهذا السنا مندهشتين من تمسك ايطاليا بما يبدو أنه ارض صحراوية لا قيمة لها . ويعتبر تكوين التربة الكيميائي هو نفس تركيب التربة في تونس المشهورة حقاً بأرض الزيتون ، وفي ارض الوديان غير الممهدة التي طرقناها

توجد احتمالات وجود صنف المياه التي وجدها الحكام السابقون ، وسيأتي اليوم الذي ينافس فيه هذا الشريط الساحلى القاحل ارض وادى « متيجا » في خصوبته .

وبعد ان تناولنا الغداء، وقع نظرنا على حصن مسور بالاسلاك الشائكة، فوق هضبة منعزلة شديدة الانحدار يعرف باسم « برج الضحية » واخذت السيارة تصعد التل وهى تنحن حتى وجدنا انفسنا محاطين فجأة بالجنود العرب ، فأرسلنا احدهم في الحال ليبحث عن المأمور ، وانتهزنا الفرصة لنخرج من السيارة وما كدنا نفعل ذلك حتى أقبل ملازم شاب وقبعته تمل في رشاقة على احدى عينيه وهو يختال بعصاه التى وضعها تحت ابطه الايسر ، في الوضع المضبوط ، وقد اقبل يحينا بكل اللطف وعدم التكلف اللذين يقابل بهما المضيف الايطالى ضيوفه في بيته .

وقدما انفسنا ، « الانستين الأمريكيتين » التى اخطرتكم مصراته عنهما باللاسلكى ، وقد استأذنا في قدح من القهوة الساخنة ، فاستدار الملازم في الحال أمرا بها وذهب بنا الى بيته ولم ندرك ان مضيفنا كان مستغرقا في النوم حين هبطنا عليه هكذا من السماء الابد ان قدمت القهوة والبسكويت ، وعلمنا ان « مصراته » لم تخطره لاسلكيا بقدمونا بل انه لم ير اية امرأة منذ عدة شهور ، وقد جلسنا نتحدث ونرددش بأخر الانباء قدر ما استطعنا ، وعندما انحنينا داخل السيارة المكسدة آخر الامر ، احسنا اننا نترك صديقا جديدا وسيدا مهذبا ممتازا .

وحوالى الغسق، وصلنا الى النقطة التالية في سيرنا وهى « بويرات الحسون » التى لا تعدو ان تكون مصيفا مهجورا على ساحل « الامين » شمال شرق الولايات المتحدة، في عصر احد ايام سبتمبر . وبمحاذاة الساحل انتشرت مجموعة متباعدة من الاكواخ غير المطلية والتى انشأت لتأوى الجنود في نهاية احدى الحملات الطويلة خلال الشتاء ، وبعد ذلك اعيد تمثيل الحملات السابقة فشاهدنا مائتين وخمسين شاحنة محملة بالمؤن لارسالها الى الكتيبة الثانية للهجاة التى تحارب فيما بين سوكنة وهون جنوبا .

وتحولت الصحراء الساكنة الى خلية من النشاط ، اذ اخذ الضباط المسئولين عن الشحن ينظمون الشاحنات بايقافها في صفين يمتد لبضعة مئات من اليارات من الحصن حتى الثكنات ، ثم يبدأ توزيع حصة كل شاحنة من البترول والزيت بكل عناية ، على مائتين وخمسين سائق ، وهؤلاء المساكين ، فضلا عن الاهتمام بتزويد سياراتهم بالوقود والمياه ، كان عليهم ان يقوموا باصلاح اى عطل ، أو محرك يتوقف فجأة ، وقد بدأنا نفهم صعوبة وضخامة تدريب وتزويد جيش حتى لو كان صغيرا نسبيا واعداده للقتال .

وبينما نحن نحوم حول المكان وآلات التصوير على اكتافنا ، اذا بنا نرى بين مجموعة من الضباط عددا من اصدقائنا اللاهين المرحين الذين لعبنا ورقصنا معهم منذ فترة قصيرة في سيناون ، انهم حسب السن ليسوا اكثر من غلمان ولكنهم مع ذلك رجال سمر نحيلى القائمة في عيونهم . نفس النظرة الجادة التى يحملها اولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد الحرب العالمية التى آتت على الاخضر واليابس ، انهم لا يزالون يذكرون ميلادهم من جديد من خلال النيران وفي كلمات محددة قوية أخذوا يقصون علينا قصص بعضهم ، واحد قد رقى للشجاعة التى ابداهها في الميدان ، وآخر جرح وموجود بالمستشفى ، وجميع افراد الكتيبة الثانية يحاربون في هذه اللحظة معركة « بهون » على بعد أقل من ثلاثمائة كيلو متر جنوب « بونجيم » هدفنا الثانى في الرحلة .

ولعل اكثر الجميع مرحا هم الطيارون العائدون لتوهم بالطائرات الضخمة بعد تسليم حمولتهم من الجرحى ، الذين وضعت انامل العقيد الطبيب الماهرة نهاية لآلامهم . وقد جلس الطبيب في مقعده عند نهاية المنضدة الطويلة يعلن الاخبار بقائمة الناجين ، فيضح المكان بالهتاف من زملائهم .

وأخيرا رحلنا الى بونجيم عند الشروق بين اسف مضيفينا في « بويرات الحسون » وبين دهشتهم لا صرارنا على زيارة موقع لا يضم الا بضعة ضباط منسيون ، في منخفض وسط الرمال المتحركة البيضاء ، والواقعة على مسافة مائتين وخمسين كيلو متر داخل البلاد ، ومع هذا ذهبنا ووصلنا وقت تناول الشاي .

وسيمضى وقت طويل قبل ان ينسى ضباط بونجيم وصول اول امرأتين الى الموقع ، فعند وصولنا رأينا طائرتين كبيرتين من حاملات الجرحى رابطتين على الارض ومحركاتها تدور ، وقد وقف الملازم « ماريوتى » وهو الرجل الذى جلست بجواره امس في « بويرات الحسون » والذي كان قد اخبرنى انه ذاهب مع الشروق الى « هون » .

وتحركت فينا غريزتنا الصحفية ، وحب التصوير السينمائى فخرجنا من السيارة الفيات ونحن نحرك آلاتنا قبل ان يجرى الطيارون المسافة القصيرة بيننا وبينهم ، ليشرحوا لنا انهم اضطروا للهبوط الاضطرارى بسبب اعصار ، ولكنهم على وشك الرحيل الى الجبهة ، فهل نستطيع اخذ صور لهم ؟ وبالطبع كنا نستطيع . وقد صورناهم فعلا بين دهشة رجال وضباط « بونجيم » الذين اخذوا يتجمعون امام آلات التصوير ، ثم امروا بالانصراف دون رفق ، واخيرا نجح واحد منهم تبين آخر الامرانه الملازم « بيانكى » الذى اخبرنا ان المأمور ينتظرنا ليرحب بنا في الحصن ، لهذا صعدنا بصعوبة الى السيارة من جديد وبكل المهابة التى نملكها سرنا حول التل بين صف مزدوج من الاسلاك الشائكة حتى

وصلنا الى فناء الحصن .

وتقدم المأمور ونزل سالم المنصة ومنظار الميدان في يده وعلت وجهه ابتسامة ، كان هذا هو قائد كتيبة الارتريين التاسعة عشرة ، وكان يرقب مسرورا وصولنا غير الرسمي ، وقد قرر الا يلقي خطبة رسمية يرحب فيها باول امرأتين يسمح لهما بدخول منطقة القتال ، بل بدأ يهتم بالموضوعات الاكثراهمية وهي ان يجد لنا شيئا نأكله ونشربه ، وبينما كنا نجلس في البهو المنعش بدأ الضباط يتجمعون حولنا فيقوم بتقديمهم الينا .

لقد مكثنا اكثر من اسبوع هنا دون ان نشعر لحظة واحدة بالملل ، والحقيقة انه اكثر المواقع في ليبيا عملا واثارة ، فهو خلية من الحركة والنشاط ، ففي الساعة الخامسة صباحا استيقظنا على صوت وضوء كتيبة الارتريين الذين يعسكرون تحت نافذتنا ومن هذه اللحظة يصبح كل فرد مشغولا . وفوق هذا الدرب الساكن المهجور والذي يستعمل — مجازا — طريقا في هذه الارض التي تم اخضاعها اخيرا ، يشق صفان لا ينتهيان من الشاحنات طريقهما ، احدهما يحمل المؤن الى الجيش الذي يحارب في « هون » والثاني عائد بعد ان افرغ حمولته في « البويرات » وعلى امتداد كيلو متر تنتشر على جانبي الطريق ، كتيبة من الارتريين واجبههم حماية صف العربات وتأمين خطوط الاتصال ، وكنا دائما نسمع ازيز الطائرات المقاتلة .

واذا حدث ووجد وقت للراحة وسط الاعمال العادية ، يظهر أحد ضباط الموقع ليشرح لنا شيئا جديدا عن هذه البلدة الصغيرة التي يسكنها حوالى مائتى رجل .

اما المستشفى ومستودع الادوية ، فعلى آخر طراز وكذلك المطابخ ففيها موائد الميدان الاميركية الضخمة ، اما الثكنات فقد رصت فيها الاسرة الحديدية وكذلك حجرة الطعام خلف بهو الضباط ، حيث يجتمعون للتدخين او تناول القهوة ، وبالطبع يصعد الحراس عند الغروب الى الابراج ، وطول الليل تضيء الانوار الكاشفة الرمال لأميال وأميال .

وحدث مرة ان دعانا الملازم « بيانكى » مأمور الموقع ، ان نترك اكل المطعم ولتتناول طعاما عزيزا يقدم في مقره ، وفي الساعة الحادية عشر والنصف تماما ظهر عند الحصن ليصحبنا عبر كثيب من الرمال حتى الجانب الآخر حيث يوجد البيت ذو الحجرات الثلاث ، وقد اخبرنا بكل فخر انه هو ورجاله قد قاموا ببنائه وقت اعادة الاحتلال ، وجلسنا نحن الاربعة على مائدة اوروبية كاملة ليقدم لنا عدة انواع من الطعام اللذيذ الذى لا يمكن ان ننطق اسمائها .

وبعد الانتهاء من الطعام تناولنا القهوة ، في الفناء دون رسميات ثم ركبنا السيارة الى احد

الاماكن حيث تجمع خمسة عشر من رجاله ليقدموا لنا مشهدا . وحين اخذت السيول تعدو كانت تثير سحابة كثيفة من الرمال تصعب معها الرؤية ، وحين رأوا المأزق والوضع الخطر الذى كنا عليه ، وقف فارسان على اليمين وعلى اليسار واخذوا يصرخان بالاوامر ويلوحان بأذرعهما حتى لا نوطأ بالاقدام . وقد مرت بنا دقائق شعرنا فيها حقيقة بالخوف ، وسط هؤلاء العرب الذين يصرخون وهم يسرعون بخيولهم ويقفون عليها ثم يطلقون الرصاص وهم يرمون ببنادقهم في الهواء .

واظن ان العقيد « فاتورى » قد حضر في اليوم الثالث لاستلام عمله كفائد للمنطقة وليكون قريبا من منطقة القتال ، وتكدس هو ومأمور الموقع في الشاحنة معنا واخذونا الى اطلال القاعة الرومانية الكثيرة التى قطعنا كل هذه المسافة لراها ، وعلى مدى ساعتين اخذنا نغوص في الرمال حتى الركب ثم صعدنا الجدران والاعمدة المدفونة ونحن نتحسس تحت الرمال المتحركة الشكل الذى كان عليه ما يبدو وكأنه جبل طارق بالصحراء .

وقد اخبرنا العقيد « فاتورى » ان الايطاليين كانوا قد توغلوا في الداخل في عام ألف وتسعمائة وخمسة عشره لضعف المسافة، ولم تفقد القصة شيئا من اثارها لانهم كانوا يتحسسون الرمال ليظهر جدران روماني ضخمة زاد ارتفاعه باضافة اكياس من الرمل التى تركها الايطاليون المعاصرون ، ولكن حين ضغطت النمسا عليهم كان لابد ان يضحى « بليبيا » وصدرت الاوامر بالانسحاب نحو الساحل ونفذ الامر فعلا اما الشبان الذين سقطوا وهم يحاربون من اجل اقامة امبراطورية افريقية فقد تركوا في قبورهم ليحرسوا الارض لايطاليا حتى يتمكن اخوانهم الاحياء من استعادة الموقع وقد فعلوا ذلك واتموا بناء الحصن منذ ستة اشهر بالضبط ، وكانت هذه الجولة اصعب واشد خطورة لانهم كانوا قد تركوا البنادق والموتن اثناء انسحابهم ، واليوم يجد الرجال المحاربون بالموقع انفسهم يحاربون جيشا وطنيا خيرا باستعمال اسلحة ايطاليا نفسها .

وكان من حظنا ان نكون في بونجيم في الاحتفال « بيوم النصر » فى الليلة السابقة وصلت قافلة من ثلاثمائة جمل وافرغت حمولتها من العاشرة حتى الثامنة ، كما حضر اصدقاءنا من الكتبية الثانية للهجانة مع صف العربات الذى تركناه وراءنا في « البويرات » واثناء تناول الغذاء وصلت شاحنة قفز منها « ديكى » وكان قد تركنا في طرابلس في سبتمبر الماضى ، وقبل ذلك كان المقدم قد اخبرنا بانه لاسبيل ولا احتمال لان يحضر « ديكى » الى الحصن لانه ورجاله يحرسون الطريق قرب « هون » لتأمين مرور رتل السيارات، وانهم قد حاربوا معركة كبيرة منذ يومين ولهذا فكل فرد سيكون في حالة استعداد وطوارئ فلما حضر فعلا ، كانت مناسبة خاصة القى معها المسئول اوامره واقامت وليمة فيها المرطبات والحساء والدجاج والمكرونه ولحم الغزال والخضر وانواع

عديدة من الحلوى والفاكهة والمشروبات المنوعة ، ان كل هذا يتم في بلد تنقل اليه حتى مياه الشرب .

ولم يكن هذا كل شيء فمع الحلوى قدمت انواع شتى من المشروبات والقيت الخطب التي بدأت بنخب « النصر الايطالي » الذي كنا نحتفل به في ذلك اليوم ، وانتهت بمفاجأة سارة ، نخب جديد شربناه ونحن وقوفاً ناصديقتين الاجنبيتين الموجودتين بيننا « ولجمهورية امريكا التي تمثلناها » .. واجبنا « ليجعل الله التفاهم بين بلدينا كما هو بيننا اليوم » .

دورثي

سرت في ٨ نوفمبر

أمى العزيزة

ان « بونجيم » مثيرة حتى لقد عز علينا تركها ، ولكننا غادرناها في السيارة يوم الثلاثاء الماضي وهو يوم الانتخابات ، وقد ارسل المأمور معنا ضابطا برتبة ملازم ، وهو شاب جاد يشعر بالمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه بحماية نساء الموقع ، ونحن في طريقنا الى « البويرات » عدنا نسمع ازيز الطائرات المؤلف فخرجنا نلوح مودعين الملازم «ماريوتي» الذي افتقدناه على العشاء في البويرات .

ثم واصلنا السفر في الثانية وسرنا بمحاذاة البحر خلف سلسلة من الكثبان المنخفضة التي تكون على قدر مانرى ، العقبة الوحيدة التي تحمى البحر الابيض من أثر الصحراء في هذه المنطقة ، واخذت السيارة تتزلق وتزحف اميالا فوق الرمال المبللة وهو ما لا يشير بالقيادة لمسافات طويلة .

و « سرت » بلدة ساحرة ونحن مقبلون عليها ، وتنتشر المنازل الانيقة والحدائق الغناء وارض المطار والمعسكر التابع له على مساحة كبيرة في الصحراء ، اما الحى العربى فيوجد على مرتفع من الناحية الاخرى من التل ولا نستطيع رؤيته وقد انزلونا في مقر قيادة الطيران ، اما المقران المخصصان للضباط واسرهم فقد شيئا على الطراز العربى ، حول الاماحة ووسط حديقة صغيرة قبالة حظيرة الطائرات . والتيار الكهربائى متوفر ، وقد تفضل مشرف البهو بتوفير قهوة الصباح فوفر علينا بذلك مسيرة طويلة عبر البلدة الى مبنى الحكومة حيث كان مفروضا ان نتناول غداءنا وعشاءنا وهو موقع كبير ، اذ يضم اربع صالات للضباط ، والقصر حيث يقطن العقيد حاكم المنطقة ، مع افراد كنيسته ، وبهو لرجال المدفعية ، وبهو لرجال الطيران والبهو الذى يستعمله الضيوف ، حيث

توجد مائدة واحدة ، لكنها طويلة جدا وقد اسرعنا فاتخذنا اماكننا على الجانبين ، وحيث خرجنا في الظلام الحالك ، طرقت آذاننا نبرات اصوات انجلو سكسونية ، واستدرونا في دهشة لنقابل عددا من الشبان الانجليز ، وصلوا للتو من مالطه على طائرة نفذ وقودها وهم في طريقهم الى بنغازي ، وكانوا يقصدون رأس الرجاء عن طريق مصر ، ثم نيروبي حيث ينون قضاء شهرين في الصيد ، وأكثر الرجال الاربعة هدوءا هو الطيار ، اما مساعده فهو اطول الاربعة قامه ، وحين علم الرجال اننا نقصد « برقة » دعونا لمصاحبتهم بالطائرة حتى بنغازي ، ولكن هذا كان يعنى ان نترك جميع امتعتنا هنا اترسل لنا بالباخرة ، وكان من الممكن ان نترك الملابس ، ولكن يستحيل ان نترك آلات التصوير ، ثم ان الطائرة كانت ممتلئة تماما بأمتعتهم وبأدوات الصيد ، لهذا ودعناهم عند الشروق ، ومنذ هذا الوقت ونحن نأسف لاننا لم نذهب معهم ، اذ أذاع راديو طرابلس ان الباخرة التي كان يجب ان تغادرها امس لم تفعل بعد .

هيلين

سرت في ١٠ نوفمبر

يبدو ان القدر قد قضى بأن نمكث هنا اسبوعا بدلا من يوم ، فقد تأخرت هذه السفينة المزعومة حتى اليوم وحتى خلال هذه الايام القليلة فقد لاحظنا تغير الطقس ، كان البحر هادئا في الاسبوع الماضي ، فاذا حدث وظهرت الباخرة الآن فسيكون البحر هائجا ، ولن نستطيع ان نصل اليها . وقد بدأنا نشعر بشعور غريب اذ عدنا للحياة في المدينة ، فقد مكثنا كثيرا في الصحراء حتى ان تفكيرنا كان ما يزال تفكير اهل الحدود ، وفي الليلة الاولى والليلة الثانية ، انتظرنا ان يظهر ضابط شاب شهم فيدعونا للعشاء ويصحبنا عبر الحى العربى المظلم ، لقد استقر في اذهاننا ان الخطر الوحيد الذى يحتمل ان يقع هو ان نتعثر وتنزلق اقدامنا في الظلام الدامس . وفي احد الايام وكالعادة جاء لنجدتنا صديقتنا الوفي « جونى » وتناولنا نحن الثلاثة العشاء بمقر قيادة الطيران .

و « سرت » مكان جميل ، ولبنى الحكومة واجهتان ، واحدة في مواجهة البحر والثانية تطل على الميدان الرئيسى بالبلدة ، وهو مشيد على حافة جرف منخفض ، ويتفرع من هذا المكان اثني عشر شارعا مما يذكر المرء « بالسيف الجزائرى » بما فيه من مجالات ومقاهى عصرية وعلى الطريقة الاوربية ، ولدى كل مدخل من هذه المحلات يوجد شخص عربى مشغول بالعمل على ماكينه حياكة سنجر .

هيلين

السفينة غاليبولي

سرت في ١٣ نوفمبر

وصلت الباخرة ظهر امس الاول ، لهذا فقد شحنا امتعتنا في شاحنة وذهبنا الى الرصيف الذي لا يمكن لاي سفينة ان تصله وسط هذه الامواج ، لهذا فقد ترك « جوني » الامتعة في « الجمرک » وذهبنا لتناول الشاي مع اسرته ، وصباح امس وبينما كنا نحتس قهوتنا اتصل بنا « جوني » بالهاتف ليبلغنا ان البحر مضطرب وان السفينة لا تستطيع تفريغ حمولتها كما ان القبطان قد ارسل اشارة لاسلكية (وهو لا يبعد اكثر من مائة ياردة) بأنه سيغادر الميناء بمجرد ان يحصل على التصريح بالخروج الذي سيرسل له في قارب صغير ، فاذا كنا مستعدين لان نجازف بالذهاب والتعريض للبلل نحن وآلات التصوير ، فانهم سيرجثون ارسال التصريح حتى ندرکها ، واسرع « جوني » بجلب عربة يجرها بغل واسرعنا نحو الجمرک ، وهناك غلف كل شيء بالمشمع ، « وقذف بنا وبجأيتنا في احد قوارب النجاة التي قادها ستة من العرب ، وبالرغم من تنبؤات البحارة لم ينقلب بنا القارب بل سرعان ما أدركنا الباخرة ، وكان البحر هائجا بدرجة لم تسمح بانزال السلام فلم يكن بد من حملنا بالايدي وليتكم رأيتم وجه القبطان وهو يرى الذي ارسل اليه .

ولكن ما ان وصلنا الى ظهر السفينة حتى هبطت الريح فقرر القبطان ان يبقى حتى الصباح ليحاول افراغ شحنته ، ولكنه عاد وقرر الابحار بعد الغداء .

دورثي

الباخرة غاليبولي

سرت في ١٤ نوفمبر

أمي الحبيبة

لقد تمتعتنا برحلة بحرية رائعة امس خلال الامواج الهائجة قرب الشاطئ ، اذ كان البحارة العرب في غاية المهارة ، لقد أخذ القارب يتأرجح ويغوص ويعلو ، وما كان لصيادي نيوفاوندلاند انفسهم ان يتحكموا فيه بأفضل مما فعل هؤلاء البحارة ، لقد كانت الامواج عاتية ، وكان اصعب ما في الامر عبور الصخور وسط الامواج الخطرة ، ولكن ما ان خرجنا الى عرض البحر حتى كنا كمن يركب لعبة خطيرة تدفع ، به الى اعلى تارة والى اسفل تارة اخرى ، لقد انزلوا السلم في وضع افقى تقريبا لمساعدتنا في

الصعود ، وكان على انا ان ابدأ فما ان اقترب القارب الى مسافة تسمح بالصعود حتى قبضت على السلاسل في قوة وامسك بي من وسطى البحار الواقف على السلم المتحرك، وكان هذا من حسن الحظ ففى نفس اللحظة ، كان القارب يتزلق بعيدا اما انا فقد جذبت بقوة الى سطح السفينة ، فوقعت رأسا على عقب، اما دورثي وكانت ما تزال في القارب ، فقد انتابتها نوبة من الضحك والابتهاج ، ولكنى لم انظر نحوها فقد كنت مشغولة باتمام الصعود من السلم المتحرك كما انى لم استطع ان اراقب عملية صعودها.

وضباط السفينة في غاية اللطف ويتكلمون الانجليزية ، وبدأت الشمس تسطع بعد الغداء ، لهذا فقد تذرنا بالبرانس وحاولنا ان ننام في الشمس كقطتين قد شبعنا . وعندما بدأنا نغفو ، حلا لبعض العرب من ركاب الدرجة الثانية الذين كانوا يجلسون قريبا ان ينطلقوا في الغناء ، واعتقد انهم ظنونا عربا مثلهم لاننا كنا قد تذرنا تماما ، وقد تحملناهم قدر استطاعتنا ، ثم قامت دورثي لتبحث عن احد الضباط ، وبعد قليل حضر ضابط فطردهم وارسلهم الى حيث يتزلون .

هيلين

بنغازى فى ١٥ نوفمبر

أسرتى الحبيبة

لقد رست الباخرة، ونزلنا عصر اليوم وسط القوضى المألوفة ، والواقع اننا لم نكن ندرك كمية الامتعة التى جمعناها، حتى رأيناهم يحملونها في القارب .

ولما لم يكن الوقت موسما سياحيا فإذ الفندق لم يرسل احدا لمقابلتنا ، ولهذا فقد وضعنا كل حاجياتنا في عربة ومضينا بجوارها كل منا على جانب من الطريق الرئيسى حتى « الجرانند اوتيل » حيث وجدنا اكواما من الرسائل .

وكما توقعنا فقد حضرنا وحضر المطر معنا ، فما كدنا نستقر حتى فتحت السماء أفواهاها ، ولم ار في حياتي شيئا كهذا ، فطوال العصر والمساء بدأت العواصف تهب واحدة وراء اخرى ، كما اخذت السحب السوداء التى يمزقها البرق تبدو وكأنها لا تتحرك وجلسنا بجوار النافذه نرقب محيطها اوعلى الاصح قرعها وبما ان الفندق يقع في نهاية حديقة تواجه البحر فليس هناك ما يصد الرياح او المطر ، وباله من مطر فما كنا نستطيع رؤية الطريق حين يشند هطول المطر التى اخذت تضرب في عنف فتسرب من النوافذ المغلقة، فلا تلبث ان تتكون بركة على ارض حجرتنا فنضطر لان نبعد امتعتنا من مكان لآخر ، ولكن الغريب في الامر ان هطول المطر لم يكن يستمر اكثر من نصف

ساعة او ساعة على الاكثر وينقطع حوالى نصف ساعة او اكثر ثم يبدأ من جديد وتطلع الشمس ويحف كل شيء .

وفيما بين هذه « الرخات » كنا نسرع عبر الطريق لنقدم رسائلنا لرئيس الديوان وبالرجل المسكين ، انه في غاية الحرج ، ولا يعرف ما يفعل لاجلنا ، وفي اول الامر حاول ان يتلمس طريقة ليرسلنا الى الباخرة لتبحر بها بمحاذاة الساحل ولكن اتضح انها لن تبحر قبل اسبوعين ، وهنا اوضحنا له اننا هنا لكي نرى ونصور البلاد ، ولهذا فقد بدأ يجمع لنا معلومات عن الطرق البرية التى كان القليل منها ما يزال مفتوحا ، وكان من بينها طريق « المرج » لهذا سندهب عن طريق « توكرا » بمجرد ان تتم الاستعدادات ، كما كلف الدكتور « فيرنو » ان يرينا الاماكن المهمة خلال هذه المدة .

١٦ نوفمبر

أسرتى الحبيبة

ما زلنا في بنغازى ، بالرغم من ان البرنامج كان ان نسافر امس ، فقد ارسل لنا مقر الحكومة يخطرنا ان طريق « المرج » تغمره المياه ، ولهذا فنحن ما زلنا هنا ، ان رئيس الديوان يرى ان فرصتنا الوحيدة هى السفر بالطائرة ، والشخص الوحيد الذى يستطيع ان يصرح بذلك هو الحاكم « تيروزى » ، لهذا فقد طلبنا موعدا لمقابلته في مقره بعد تناول الشاي ، ولم يكن هناك دافع لمخاوفنا لانه متزوج من سيدة امريكية ومتعود على الامريكيين ، وقد استقبلنا بحرارة ومودة ، واعتذر عن سوء الطقس واكد ضرورة الاتفوتنا روية « بارشى » او « سيرينى » بل وعرض علينا سيارته « الكابرونى » وعلى هذا فقد اتفقنا على انه اذا لم يفتح طريق بارشى فائنا نطير الى « ابولينا » .

وخلال هذه الفترة كنا مشغولين بالبحث عن « حديقة أوسبيديس » فقد كان كل واحد يحدد موقعا مختلفا عن الآخر ولكن لدى زيارتنا لآخر موقع هذا الصباح نستطيع ان نقول اننا قد رأينا الموقع .

ومن الصعب ان يصور المرء مدينتين عريبتين ساحليتين يختلفان مثل اختلاف طرابلس وبنغازى . فكلا المدينتين تحتضنان البحر في أكثر اجزأهما ، وهنا يتوقف كل تشابه بينهما ، فطرابلس مثال للمدن الافريقية الواقعة على واحات الصحراء ، بينما تبدو بنغازى مدينة تركية اوروبية وكان اسمها القديم « بيرنيس » وكانت احدى ثلاث موانئ في مقاطعة برقة سابقا ، والجبل يهبط مباشرة نحو البحر ، او يمكن القول ان الارض ترتفع مباشرة من البحر في سلسلة من التلال المنخفضة ذات التربة الحصبة

حتى « الجبل الاخضر » على بعد خمسة واربعون كيلو متر من البحر وهذا الجبل يفصل الساحل عن الصحراء . وبينما لا يصل ارتفاع التل الى الحد الذى يسمح بتسميتها حتى للشخص العادى جبالا ، الا اننا قد شاهدنا ، كيف ان هذه التلال تختلف كلية عن الصحراء واصبحت في خصوبة التلال في الجزائر .

دورثي

بنغازى في ١٦ نوفمبر

أمي الغالية

اننا نكاد نتجمد من البرد بعد حر الصحراء ، لقد اصطحبنا الدكتور « فيرنو » هذا الصباح الى المتحف ، وقد سررنا مما رأينا كثيرا ، انه متحف صغير ولكنه يحتوى على قطع رائعة من بلدتي « سيريني » و « ابولونيا » وطبعا تمثال « فينوس » موجود بروما ومع ذلك فما زال بالمتحف ما يستحق الاعجاب ، ولقد رتبت القطع بطريقة لانتظر المتفرج لان يضع في دوامة .

وبعد ان تناولنا الغداء ظهر الدكتور « فيرنو » في عربة « اليزابيث » جديدة تماما ، لهذا ، فبعد ان قضينا شهورا نستعمل القيات ، احسنا ونحن نركب الاليزابيث اننا نظير فوق برج « وول ورث » وقد شاهدنا ثلاث مزارع يمتلك اكبرها طبيب من بنغازى ، وبها مستنبت زجاجي هائل ، به انواع نادرة من ازهار المناطق الاستوائية ، وقد بهرنا كل ما رأينا حتى أن ناظر المستنبت قدم لنا باقات كبيرة من الورود وضعناها على مائدة الطعام ، وفي طريق عودتنا مررنا بمعتقل للمحكوم عليهم يعملون تحت حراسة حصنين ركبت فوقهما بعض المدافع .

وعدنا عند الغسق متجمدين من شدة البرد فارتدينا الملابس التي جاءت لتوها من التنظيف ، وذهبنا للقاء الحاكم ، وهو يقيم في الجزء الامامى من مبنى الحكومة حتى يتم بناء الجزء الخلفى على مهل والمبنى على الطراز المغربى وفي مواجهة الميناء ، ولا بد أنه سيبدو مهيبا حين ينتهى البناء وبالطبع كنا قد سمعنا عن الحاكم « توزولى » وزوجته الامريكية ، وقد وجدناه لطيفاً ، ظريفاً جداً ، وأوضح لنا الاماكن التي يمكن زيارتها ، كما وعد بأن يرسلنا الى بلدتي « سيريني » و « ابولونيا » في سيارته الكابروني ، وبعد ذلك دعانا فخامته لتدخين بعض من سجائر زوجته « لاكى سترايك » وسأل عما اذا كان يمكنه ان يساعدنا في أى امر آخر ، وسألته دورثي عما اذا كان اهتمامه بالشئون الامريكية يسمح له بتخمين اسم من يفوز من المرشحين للرئاسة الامريكية ، فارسل

يطلب البرقيات اللاسلكية ليطلعنا عليها ، وانتهت المقابلة بشرب نخب الرئيس هوفر .

لقد احببنا بنغازى فهى مدينة نظيفة، منسقة ولكن حاجر الامواج الهزيل لا يستطيع ان يحمى الميناء مما يجعل الدخول اليه مستحيلا، فبقى البواخر خارجا لبعضة ايام في موسم العواصف ، ان الباخرة « السولدننتو » ظلت خارج الميناء تتقاذفها الامواج ، لمدة ثلاثة ايام، دون ان تستطيع افرار حمولتها من البريد او الركاب ، وقد سمعنا ان هناك خططا لإنشاء مرفأ جديد فلعله ان ينفذ سريعا ، اما « فاليبولى » فلانها صغيرة ، فقد امكنها ان تدخل الميناء وان تصل الى الشاطئ واضطربنا لان نصل اليها في القوارب .

ومناثر المساجد مشيدة على الطراز التركى ، والمدينة نفسها اجمل كثيرا من الموانى الافريقية، وان لم تكن في روعة طرابلس ، اما الحى الاوروبى فيبدو كالكثكوت الذى فقس حديثاً وعليه قليل من الريش ، اذ ان المنازل المتناثرة المشيدة حديثا اخذت تحل محل مساكن العرب القديمة المبنية من الطين ، وقد علمنا ان السوق القديم قد احترق ، وبالطبع فإن المنازل التى تضاء بالنيار الكهربائى، نظيفة وصحية وهى مصدر سعادة للامريكيتين المصابتين بعقد الخوف من الجراثيم .

لقد تجولنا سريعا في المدينة وخلال الحوارى القذرة النابضة بالحياة ، ففيها صناع الاوانى النحاسية والمخابز تتصاعد منها رائحة الخبز الشهية ، والخياطون الذين يشتغلون في ضوء الشمس ، هذه هى افريقيا ، ان المرء ليحس لدى الاهالى في بنغازى تلك الحيوية التى يفتقدها اهل الجنوب ، ونجد تقاطيع الوجه العربى شبيهة بتقاطيع المصريين نفس الانف الطويل، والحواجب المستقيمة ، ولكن تنقصهم دماثة اخلاق ابناء الصحراء .

ويحيط بالمدينة من بعض الاجزاء سلسلة من البحيرات المالحة ، وترقد في قاع واحدة منها « حديقة هسبريدس » ويعتقد المؤرخون انها تبعد عشرة أميال من البلدة ، على اى حال، فقد وقفنا نتطلع الى البحيرات جميعها تغمرنا عاطفة قوية ، واذا كنا لم نستطع ان نرى هذه الحديقة الاثرية الشهيرة ، فعلى الاقل رأينا موقعها .

ان المطر يهطل بغزارة، ويتسرب من النوافذ ويملأنا بالسرور، لاننا سنذهب غداً الى « توكره » و « بارشى » وفي آخر الكتب الايطالية وجدنا الكاتب يقول « ان هذه البلاد تنال كفايتها من المطر » وسنستطيع ان نوكد هذا القول ، ولدينا فرصة جيدة لتصوير بعض الافلام .

هيلين

أهلى الاعزاء

انها حياة عظيمة ، لقد حضر « الدكتور فيرنو » مساء امس ، واعلن انه سيصبحنا الى « بارشى » في الصباح ، ولان امامنا يوما حافلا في الغد ، فقد هطلت الامطار بغزارة ، وقضينا معظم الليل نجهز امتعتنا وعند الفجر انقطع هطول المطر ، ولكن بعد ان صرنا حائقتين لدرجة ان قمنا نبحث عن بعض القهوة ، مما اقتضى ان نتعرف على المنطقة المحيطة بنا ، وقد وجدنا « لاثريا » صغيرة عبر الشارع من ناحية اليمين ، حيث قدموا لنا احسن قهوة واشهى فطير ذقناه في المدينة ، بل ان صاحب المحل قدم لنا بيضا مسلوقا .

وفي الساعة السابعة والنصف انطلقنا في عربة « فورد » جديدة فوصلنا « بارشى » في موعد تناول الغداء ، وفي الساعة الاولى او اكثر كنا نكاد نظير بمحاذاة الساحل ونحن نتجه الى « توكره » ويسمىها القدماء توكيره ، عابرين بركا كبيرة من المياه تكونت على الطريق ، وقد مررنا على خيام البدو الكثيرة والرجال المساكين ، يحاولون تخفيف حاجياتهم في الشمس الواهنة وثبيت الخيام المهلهلة التي اخذت الرياح تقتلعها ، وحين كان الجو يتحسن قليلا كنا نجد انفسنا فجأة وسط قطع من الاغنام تمتلكه الرغبة المجنونة في ان يعبر الى الناحية الاخرى من الطريق في نفس اللحظة التي تظهر فيها بياراتنا او جمل صغير مرح ، يصير على القفز امامنا ملطخا السيارة بالطين الاحمر وبالطبع حين وصلنا بارشى « آخر الامر كان منظرنا في منتهى البهاء . ! !

وعند توكره انعطفنا في زاوية قائمة مع الطريق نحو الداخل وصرنا بسرعة حتى وصلنا طريقا متعرجا بدأ في الارتفاع حتى الفين ومائتين قدما ، وانتهى الى هضبة مستوية ، وعلى مدى ساعتين تحطمت خلالها اعصابنا ، اخذنا نسير وننعطف وندور ، ومع ذلك فقد كانت رحلة جميلة ، وان خيل الينا اننا نسير في سكوتلانده لا في افريقيا ، وعلى امتداد النظر غطى الارض الطينية الحمراء شجر الصنوبر المتداخل ، الذى يبلغ طوله حوالى ثمانية او عشرة اقدام ولقد كانت هذه المنطقة عونا كبيرا للعرب في تحديد لايطاليا . ولولا الرياح التى تسفح هذه الاشجار بصفة مستمرة ، عبر هذه الهضبة لكان من المحتمل ان يكون طول هذه الاشجار ضعف ما هى عليه ، ولكنها تنمو وان كان على استيحاء ، فاذا حدث وبرزت هنا او هناك بعض الاشجار الطويلة اعلى من غيرها فسرعان ما تطوى الى النصف .

وحسبنا اننا قد بلغنا الجبل ، ولكن وجدنا فجأة طريقا متعرجا بدأ ينحدر حتى ينتهى

الى واد خصيب يهبط نحو مائتى قدم واعتقد انه يبلغ عشرة اميال اتساعا ومستو تماما استواء كرة البولنج ، وفي الجانب الآخر اترفت سلسلة اخرى وكان هذا هو جبل « سيريناىكا » وعلى سفحه رقدت « بارشى » أو « بارشى أو مرج الاسلام .

ففى احدى المخاصمات السياسية شد بعض أهالى « سيرينى » رحا لهم ، واسسوا مدينة « بارشى » هذه لمنافسة « سيرينى » وفي الواقع ان المدينة الثائرة استطاعت الاحتفاظ باستقلالها لمدة طويلة بعد ان تحولت « سيرينى » الى اطلال . والسبب انها كانت على طريق القوافل بين الاسكندرية والقىروان ، مما يفسر كيف احتفظت بارشى بالطابع العربى إلا من صخرة اغريقية او رومانية هنا او هناك وسط حائط مسكن احد المواطنين .

وبينما كنا مغربين بتراب الارض الاحمر ، الذى اختلط بالمسحوق الابيض الذى نترين به . وحاولنا ان نصلح من هيئتنا قبل ان نتوقف امام مقر المندوب الحكومى (لأن سيريناىكا تقع تحت الحكم المدنى) ولهذا فإن العسكريين يأتون فى المرتبة الثانية ، وقد قدمنا دكتور « فيرنو » الى شاب طويل يدعى « باريل » عوض جمال عينيه جهله بالانجليزية ، فقادنا عبر حديقة جميلة بها بعض الاطلال الرومانية الى منزل من طابق واحد، يقع فى وسطها، وهو « المقر الرسمى » ونحن نحس بنوع من الابهة بالنسبة لشخص عربى لا يلبس أى زى رسمى ، يجلس القرفصاء خارج جناحنا ، فى انتظار اى امر منا .

دورنى

١٨ نوفمبر

أهلى الاعزاء

لقد اتصل النقيب « باريل » لاسلكيا « بطلمية » وابلغهم بأننا سنذهب الى هناك اليوم اذا توقف المطر، وحمدا لله فقد ذهبنا . لقد اقلعنا حوالى الساعة التاسعة ووصلنا اليها سابحين تقريبا ، وذلك فى موعد سمح لنا بأن نستكشف الاطلال قبل الغداء، وكانت رحلة عاصفة شاقة . ففى الجزء الاول كانت الطريق غارقة فى المياه مما اضطرنا لأن نسير على الحافة، ولكنها كانت لزجة لدرجة ان قرر سائقنا ان فرصتنا الوحيدة هى ان نخوضها مسرعين ، وحين فعلنا بدأ يقذف بنا مرة فى سقف السيارة واخرى يرمى بنا فى ارضها فنصطدم بالمقعد الامامى . وبدأنا نترحم على الفيات ويزيد عرفانا لفضلها ليتكم ترون الوديان التى صعدناها ثم انحدرنا منها ثانية (بل لعله من الافضل ألا ترون) ليتكم ترون الاخاديد التى قفزنا فوقها او الطين الذى خضنا فيه لاهئين ، ان الشئ الوحيد الذى لم نفعله هو ان ننسلق أية شجرة، وبالطبع لو كان

ذلك ضروريا لما توقعنا ، بل لكننا قمنا بتسليقها ، لقد رافقتنا في اول مسيرتنا عربية تحمل جنوداً لحمايتنا، ولكننا فقدنا اثرهم حتى قبل ان نبليغ الطريق الرئيسي ، وعلى اية حال ، لم تكن خسارة فادحة ، بما ان الرحلة كانت عبارة عن تقدم ونجاح كاملين .

ولم يكن النقيب « باريل » قد قضى في منصبه اكثر من اسبوعين ، فقد كان يدخل البلدة بصفة رسمية لأول مرة ، ولو كان يزورها زيارة عادية لمر ذلك في هدوء ، ولكن العرب اصطفوا على طول الطريق وعرض قاضى « طولميته » ان يقدموا استعراضا ، قد ظن النقيب ان هذا سوف يسرنا فسمح له وكان على حق ، فقد كانت تجربة فريدة أخرى .

ففى اللحظة التى قفزت فيها السيارة كالكرة المطاط على الطريق ، بدأت الاثارة واستمرت في كل دقيقة ، ومهما حاولت ان اصف ما حدث فسيظل وصفى تعوزه الحرارة ، والصورة الحقيقية لما رأينا ، فعند حدود كل قبيلة اصطف قاضيه وقومه في صف طويل يقف هو وحده في مقدمته . والباقيون اما راكبين او راجلين ، فاذا ما اقتربنا ترتفع الاذرع جميعا بالنحية الايطالية الفاشستية . وبعد ان نمر تطلق الاعيرة النارية في الهواء تحية وابتهاجا ، واذا كنا قرب قرية يتجمع الاطفال والنساء على بعد وتطلق تلك الصرخات القصيرة ، - الزغاريد - التى يطلقونها تعبيرا عن الاعجاب والتشريف ، وقبل ان نغادر المنطقة يتبعنا القاضى وواحد من قومه على الخيول فتنتطلق في اثرنا ، وهم يصرخون ويطلقون الاعيرة النارية ويرمون بالبنادق في الهواء ، ويستمر ذلك حتى ندرك القبيلة التالية فيقدم قاضيه ورجاله نفس العرض وهكذا .

حاولوا تصور هذا المنظر ، رجال من الاعراب في اسمال بالية مهلهلة، كل شئ فيهم يغطيه الطين المتناثر ، إلا اسلحتهم النارية ، ليس فيهم من العظمة واللابهة إلا تلك الاحزمة التى تضم خراطيش بنادقهم .

ثم مررنا بمنطقة غنية وعلى رأسها شيخ قوى ، اصدر الاوامر لاتباعه جميعا بأن يشيعوا موكبنا ، وبذلك اصبحنا محاطين بصف من العرب ، انحنوا على اعناق خيولهم وثيابهم الفضفاضة تتطاير بفعل الريح ونحن في الوسط نسير بالسيارة في الطريق المتعرج غير الممهّد .

فلما وصلنا الى حدود « طولميته » وجدنا الأمور ينتظر ليستقبل الركب، فيدخل بنا الى البلدة وكان حرس الشرف يتكون من العريف ومن الشباب الفاشستى المبتسمين ، وقد وقفوا جميعا وقفة انتباه في الشاحنة على جانب الطريق ، اذ ذاك نزلنا من سيارتنا واخذوا يعرفوننا على بعضهم ، ثم قدم الأمور لكل منا باقة صغيرة من زهر السنط

ثم اخذ موكب النصر يتقدم ، الشاحنة في الخلف تشارك بنصيبها من الضوضاء الى هتاف العرب ، وطلقات اعيرتهم النارية تطلق وهم يركبون خيولهم .

وفي الطريق مررنا بالمقبرة الوحيدة لـ « بطليموس فيلادلفوس » وحتى لو لم اكن اعرف ان بطليموس مصرياً ، لحمنت ذلك من هيئة ضريحه ، فبالرغم من ان العرب جردوا الضريح من واجهته الرخامية الاصلية ، وبالتالي من كل ما كان محفورا عليها ، الا ان اثر الكتابة والاطار الذى يحيط بالواجهة المكون من الحجر الجيري ، وكذلك بعض النقوش البارزة في الداخل ، تستطيع ان تعطى الانطباع بأنه كان اصلاً من ضفاف النيل .

اما الحدث الاكبر فقد حدث عند دخولنا الى « طولميته » قبل ان نصل الى البوابة الحديدية العالية رأينا الرايات ترتفع ملوحة ، وكذا الاعلام المثلثة العادية وتطوف في الشوارع ، فقد خرج السكان واصطفوا على جانبي الطريق : العرب على اليمين ، والايطاليون على اليسار ، كذلك وقف الجنود ، الجنود الوطنيون ناحية الاهالى والجنود الفاشيست ناحية الاوروبيين .

وعند مدخل البلدة تركنا المأمور وتقدم يسير وحده وسط الطريق ، فلما اقترب اخذ يحيى شيوخ وزعماء البلدة ، بينما يهتف الجميع تحية وابتهاجا وتكمل الفرقة العربية باعلان تحيتها ، اما نحن فسرنا في المؤخرة وآلات السينما تصور في همة ونشاط .

وعند نهاية الشارع وقف الضباط ينتظرون لارشادنا الى منطقة الآثار ، حيث بدأت عمليات التنقيب اخيراً ، وكان الرجال مازالوا يعملون في جمع ما يجدون من القطع المكسورة لضمها لمتحف مكشوف ويقومون بمسح للمنطقة ، لقد عمل الزمن والرمال معا على ردم المباني ، فلم يعد ظاهراً منها إلا أجزائها العليا ، وتبدو لي كبلاطة « لبيتز » وليست مقر امبراطور غائب ، حيث ظلت لمدة ثمانية وثلاثين عاماً هي المقر الاول للامبراطور .

ومن الغريب ان تبقى اشياء غريبة صامدة في اماكن مختلفة ، اولها مجموعة من السرايب ذات القباب ، تحت الارض وهي عبارة عن فتحات متشابكة لم نستطع ان نسير خلالها إلا ونحن ننحنى في زاوية عمودية ، وكان لدى كل منا نظريته عن اصلها وسبب وجودها ، واعتقد ان اكثرها احتمالاً هي -

(١) انها كانت تستعمل كمجارى (٢) انها كانت تستعمل كمخابىء جند الليبيين الوطنيين ، وكلتا النظريتين مقبولتان ، ففي الناحية الداخلية بعيداً عن الشاطئ ، توجد فتحات تسمح بمرور شخص ، وفي الناحية العكسية يوجد الشاطئ ، ومن الواضح

انها كانت طريقا للهروب عن طريق البحر .

وكالعادة كان الغداء وليمة حقيقية ، فقد جلست كلتانا على جانبي النقيب «باريل» في ناحية من المائدة وجلس المأمور في الناحية المقابلة وبحوار اربعة ضباط ، لقد سبق ان قلت ان النقيب لا يتكلم الانجليزية ، وقد وجدنا ان الاخرين ايضا لا يتكلمونها ، لهذا كان التخاطب برطانة دولية كلمة فرنسية واخرى اسبانية وثالثة ايطالية واحيانا كلمة عربية لعلها تفهم عن غيرها ، وقد احرزنا نجاحا تاما في التخاطب هكذا ، ولكن اذا استمر المرء في هذا النوع من الحديث لمدة ساعة او اثنين فلا يمكن ان يظل المرء على وقاره ومهابته ، وبعد تناول القهوة اختفى المأمور، وعاد يحمل زجاجتين طوبلتين من الشمبانيا ، واتخذ يملاً الاقداح بنفسه ، وتصور دهشتنا حين جاء دور الانتخاب فبدلاً من ان يكون النخب في صحة النقيب الجديد كان في صحة «الآستين الامريكيتين» حقا ان هؤلاء الايطاليون اعزاء .

بعد ذلك تبعنا الرجال الى المقر الحكومي ، وكان النقيب «باريل» قد اوضح لنا ان الناس الذين جاءوا مع الموكب قد تجمعوا هناك ليستمعوا لاول خطاب رسمي يلقيه ، ولم نكن نتوقع ان نرى مئات من هذه الاشكال التي ترتدى الملابس الفضفاضة، وقد وقفوا خارج الابواب لتحية الضيوف ، اما القضاة انفسهم فقد كانوا بالداخل في قاعة الاجتماعات الكبيرة ، وفي جانب منها وقفت جماعة صغيرة من الجنود الاجانب صغار السن ، ووقف احد المترجمين الوطنيين يتكلم لحوالي خمسين من الشيوخ والرؤساء العرب الذين وقفوا في انتباه واحترام ولكن دون مذلة ، وفي هدوء ووضوح وقوة تكلم النقيب الجديد ، فمدح من يستحق المديح ومر مرورا عابرا على من يستحق الموائضة دون ان يشتد في ذلك ، ثم حدد سياسته وطلب منهم ان يتعاونوا معه ، وقام العسكري المترجم الاسود العينين بترجمة كل ذلك بمنتهى الامانة وان كان وجوده غير ضروري حيث معظم الموجودين كانوا يجيدون الايطالية ، وحين اخذت المناقشة تعالج موضوعات محلية ، بدأنا مسرورين بتوجيه انتباهنا نحو هؤلاء الرجال الذين يبدو عليهم الذكاء والجدية .

واعقب ذلك لحظة صمت ، وسكون ثم استدار النقيب والابتسامة تعلو وجهه يسأل عما اذا كانت السيدات على استعداد لبدء رحلة العودة ، وحاولنا شكر هؤلاء الضباط على حسن ضيافتهم وعلى الذكريات السعيدة التي سنحملها معنا عن «طوليمته» وحشرنا انفسنا في السيارة الفيات وانطلقنا عبر درب متعرج الى حافة الطريق ومنه الى «بارشى» فوصلناها قبل الغروب ، وعلى طول طريق العودة تكرر ما حدث في طريق المجيء . . الخليل واعيرة النيران وزغايد النساء التي شاهدناها، وجعلت من رحلتنا شيئا مذكورا .

دورثي

بنغازى للمرة الثانية ٢١ نوفمبر

أمى الحبيبة

لقد ودعنا النقيب « باريل » وملازم من « طوليته » عند « بارشى » وقد تمتعنا تماما برحلتنا الى بنغازى التى تبلغ حوالى مائة كيلومتر ، واستغرقت حوالى أربع ساعات ونصف كلها في طريق منحدر حتى وصلنا في موعدها ، ان الجبل في « سيريناىكا » جميل ولكنه اكثر روعة وبهاء من جبل نفوسة ، لقد سرنا في طريق متعرج لمسافة اميال تمتد امامنا مناظر رائعة للسهول المنخفضة في ناحية البحر ، وكانت العربى الخلفية التى نحرسنا تحمل مدفعين وضعا في صندوق السيارة ، وبرزت منها قبعات الجنود كما لو كانوا لعبة الاطفال المعروفة بالعفريت ، وهذه المنطقة خصبة جدا ، وعلى طول الطريق ، نرى المزارع والمساكن بجوار السكة حديد ، اما هذه المساكن فهى عبارة عن حصون صغيرة ، شيدت وسط جدران عالية وابراج حراسة وحراس وكل مسكن محاط بالاسلاك الشائكة .

وعند « الرجمة » وهى بلدة جبلية تشبه « بونجيم » وتقع على قمة تل ، تركنا الحراس بمدافعهم ، واحسسنا بالوحشة بدونهم في الجزء الباقي لبنغازى .

وكان اليوم التالى رائعا فالشمس مشرقة والهواء منعش ، وطبيعى ان نجلس على اطراف المقاعد في انتظار الهاتف ليتحدد موعد الطيران الى « سرت » ولكن لم تصلنا أى كلمة ، فأخذنا الدكتور « فيرنو » ليرينا حديقة صخرية ، وقد صورنا بيتا مرفوعا على ركائز واعمدة حيث يدرّبون الحمام الزاجل .

وامس اتصلنا تلفونيا بالمطار ، وعلمنا ان المطار عبارة عن بحيرة . يا لعنة . . ولم نجد إلا ان نطلب عربة وحصانا نحاول بهما العبور على « حديقة المسيريدس » وقد عبرنا على حديقتين ، ولكن الحديقة المنشودة ما زالت مفقودة ، وفي المساء حزمنا امتعتنا ، للانضمام للقافلة ، حقيبة واحدة نصفها للملابس والنصف الاخر للافلام ، وقد ملأنا كل آلات التصوير بالافلام ، وبعد ذلك ، اخذت تمطر طول الليل ولا نستطيع التعبير عن اشمئزازنا .

هيلين

سيرينى فى ٢٣ نوفمبر

أمى الحبيبة

استيقظنا امس في الساعة السادسة ، وجلسنا نتظر ، نتظر فلما كانت الساعة

الثانية والرابع اتصل المطار بالهاتف يستفسر عن سبب تأخيرنا لانهم في انتظارنا ، لهذا اندفعنا هابطين ننتظر السيارة لتحملنا الى هناك ، وفي المطار قابلنا اصدقاءنا الطيارين ، احدهم الطيار الخاص للكابروني طائرة الحاكم ، وملازم طيار مسئول عن مدفع طائرة الحاكم ، ذات الجناحين وعلى بعد منها رأينا طائرة « سباد » صغيرة .

فلما سألنا في أى الاغراض تستخدم هذه الطائرة ؟ قيل انها لحراستكم يا آنستى ، فقد تضطرون للهبوط في ارض بها بعض المتمردين فان «السباد» تستطيع العودة وتحديد مكانكم . يا للافكار المشجعة ، ومع ذلك فلم نتردد ، وصعدنا الى الكابروني نحاول ان نغطى اجسامنا بكل الثياب التى نجدها ، وكذلك بالبرانس حتى اذا تجمدنا من شدة البرد ، يكون ذلك ونحن مبتسمين .

واقلعت بنا الطائرة في حوالى التاسعة والرابع ومعنا حارس من « سيرينى » يتكلم الانجليزية ، ولكننا اخذنا نتبادل الحديث كتابة بالفرنسية ، فهو ملم بالبلاد لهذا اخذ يشير الى المدن والادوية والسكك الحديدية ذاكر اسماءها .

و « الرجمة » تبدو مختلفة من الجو ، اما « بارشى » فخيال الينا ونحن نتعرف على حديقة القائد ان المنزل منزلنا الذى نعرفه ١

والجبل يبدو من الطائرة جميلا ، فالوديان العميقة تبدو كالتجاعيد ، وقد حاولنا ان نعر ، من هذا الارتفاع ، على دخان بعض المعسكرات ، ولكن لم نر إلا مخيمات العرب الرحل ، وكنا نظير معظم الوقت على ارتفاع اقل من ألف قدم ، حتى نستطيع ان نرى البلاد بوضوح ، وقد رأينا مناطق تنتشر فيها الزراعة ومداخل بعض الادوية تكسوها الاشجار التى يبلغ ارتفاعها ثمانية الى عشرة أقدام ، مما يتيح للثوار فرصة ثمينة وميزة هائلة .

وكانت الرحلة بالطائرة رائعة ، فالبحر على يسارنا ، والجبل اسفلنا ناحية اليمين ، وبدأت عاصفة وراحت الرياح تصفير ، ولكن الطيار كان متحكما في طائرته للدرجة اننا تمكنا من التصوير بسهولة وقد ادليت بجسمى من النافذة ونحن نمر فوق « سيرينى » موجهة آلة السينما الكبيرة الى اسفل لالتقاط صور على مساحة خمسمائة قدم تقريبا ، اما الميكانيكى فقد ثبت جسمه على المقعد راجيا ان تكون الصور واضحة .

وطرنا فوق « سيرينى » ومنها الى « ابولونيا » حيث هبطنا فوق حقول موحل ، واستغرقت الرحلة ساعة وخمسين دقيقة منذ غادرنا بنغازى ، وخرجت دورثى أولا ، وما ان ادلت بقدمها حتى سمعنا قهقهة مكثومة ، « انها امرأة » عدلت الى « انها امرأتان » حينما ادليت ساقى ، لقد تبين ان بنغازى اهلكت وهى ترسل الاشارة اللاسلكية بحضور

« امريكان » ان تذكر جنسهما ، وقابلنا مجموعة ضاحكة من الضباط ، وقبل الغداء اخذونا الى المتحف ومعبد ابولو على الساحل حيث كان « سينسيوس » يتحدث تحت القبة المغطاة بالفسييفاء الجميلة مرة في الشعر ومرة في الادب واخرى في الفلسفة ، وكانت ابولونيا مرفأ سيريني منذ القرن السادس ق. م. ولا زالت بها بقايا من قلعت قديمة ومسرح وصهريج مياه كانت تأتية المياه من نافورة تدعى « حارس المياه » للمدينة .

وبعد ان تناولنا الغداء قابلنا سكرتير حاكم « سيريني » الذي كان يقود السيارة خلفنا ، ولهذا فقد ركبنا معه وكذلك المأمور « ابولينا » والراكب الذي صاحبنا في الطائرة من بنغازي ومن خلفنا سارت الشاحنة تحمل اثني عشر عسكريا مسلحا ، للدفاع بشجاعة عن حقيبتنا الوحيدة .

وحين صعدنا الى الجبل تجل امام انظارنا منظر الطريق العام المثير ، والمناظر الرائعة حوله ، وعلى جانبي الطريق كانت الاطلال الاغريقية والرومانية ، واخذنا نقطع الطريق القديم ذهابا وجيئة حيث نلمح بين الفينة والاخرى مقابر مستديرة وصفوفا وراء صفوف وطبقات فوق طبقات من المقابر الاغريقية المنحوتة في الحجارة الصماء ، وحين ابتدأنا نصعد الى « سيريني » كانت تشبه مدينة كونستانتين بالجزائر ، او « روندا » بأسبانيا « فهي ترقد على قمة صخرة عمودية تطل على الساحل لمسافة أميال ، ومن تحتها مباشرة وعلى بعد تسعة عشر كيلو متر تقع « ابولونيا » وكان « منزلنا » يبدو رائع الجمال وسط حديثته وكانت الريح تصفر كما لو كانت عاصفة من عواصف يناير التي تهبط على البحر ، غير ان بالبيت حماما وأهم من هذا فان لدينا موقدا بالجاز ، يا للعرب الرحل المساكين .

هيلين

« سيريني » اخيراً في ٢٣ نوفمبر

أهلي الاعزاء

اتصلت بنا قيادة الطيران العامة بالهاتف وفعلا اقلعنا قبل الساعة التاسعة ، اما الرحلة فكانت مثيرة ، ولم أشعر في حياتي بمثل البرد الذي احسست به خلال هذه الرحلة ، طارت الطائرة فوق الجبل على ارتفاع منخفض حتى لا تحجب السحب عنا رؤية المناظر من أسفل ، وتعلقت هيلين رأسا على عقب في ناحيتها لتستطيع التقاط فيلم سينمائي ومن ناحيتي فقد بهرتني مناظر الجبل الذي يرتفع عن ساحل البحر المستوى كالحائط الأصم ، قفر موحش من أوله الى آخره .

لقد نحتت الوديان لأنفسها اخاديد الجدران العمودية بعمق بضعة أقدام وسط الاخاديد التي يصل عمقها لمئات الاقدام وتبدو اغوار رمادية اللون وسط أحراش شديدة الكثافة وشديدة الخضرة .

وحوالى الساعة الحادية عشرة هبطنا برفق فوق مطار في « ابولونيا » وتقدمت بظهرى لالخروج من الطائرة واذا بى وسط جماعة من الضباط لقد تملكتم الدهشة ، اذ تبين ان بنغازى نسيت ان تخطرهم بمقدمنا ، وقد اخذ الضباط يضحكون وقد بدا مرافقنا قلقا لا يدري ماذا يقدم غداء لنا ، وحين انشغل مع مساعديه ، اخذنا بقية الضباط الى معبد « ابولونيا » وهو كل ما بقى من البلدة القديمة التي تحمل هذا الاسم ، فالمرقا قد غمرته المياه ، والمعبد الذى كان يوما ما مركز الحركة والنشاط بالمدينة يحشم على شفا حافة شديدة من الخطورة عند الشاطئ الحجرى .

وقد امضينا اكثر من ساعة وسط هذه الصفوف المزدوجة من الاعمدة وحين طلعت الشمس ونحن ننصرف التقت لي هيلين صورة في وضع ضاحك وأنا قابضة فوق المذبح وحوالي الضباط حتى يصدق « آل توماس » في الوطن اننا هنا فعلا ، وحين جاء موعد الغداء تبين ان آمر « الميس » لم يغب دون فائدة ، فقد اعد لنا فعلا وليمة اعترف بما فيها من الطعام الممتاز وقد استمرت الوليمة حتى بدأ الظلام يرخى سدوله وبدأ الطيارون يشكرون في الرجوع الى بنغازى .

وحين خرجنا الى ارض المطار ، قابلنا شاب وسيم ، وقد قدم من سيرينى ليعود بنا بمجرد ان تدور « الكابرونى » دورتها وتلف « السباد » آخر لفة لها ، بعد ذلك بدأنا رحلتنا الى سيرينى صاعدين طريقا بغير سياد ، وحتى تزود الرحلة متعة كانت سيارتنا تبعد نحو حافة الطريق كلما قربنا من شاحنة مما كان يسبب لي قلقا شديدا ، ولكننا وصلنا آخر الامر . وها نحن بمنزل مكون من سبع حجرات ، تحيط به من ثلاث جهات حديقة كبيرة فكان من الافضل ان يكون المنزل في الوسط تماما ولكن يبدو بدلا من ذلك فالجهة الرابعة تشرف على هوة سحيقة تؤدى الى الابدية اذا نظر المرء واحس بالدوران ، ولكن ذلك سرعان ما يغتفر بعد ان يتطلع المرء للمنظر الآخاذ للبلدة القديمة والبحر والسهل الممتد .

وحين غادرنا « البروفسور » كانت لدينا فرصة جيدة لتصوير الاعمدة المبعثرة فيما بين المذبح وواجهة المعبد والتي أعيد فعلا بناء الاعمدة بالجانب الكبير ، وقد ذكر « البروفسور » شيئا مثيرا للغاية لم نسمع بمثله ابداً قبل اليوم اذ قال ان الاعمدة (اى اعمدة المعبد الرومانى) مشيدة من مجموعة من اسطوانات او اقراص من الحجارة الرملية وكل قرص منها تغطيه نقوش كتابية قد محيت تقريبا ، وانه اخذ واحدا او اثنين منها

الى المعمل ، وكلف اثنين من رجاله بأن يحاولوا قراءة النقوش ، وحين بدأوا ازداد اهتمامهم فذهبوا لاحضار المزيد منها ، فاكتشفوا ان النقوش هي عبارة عن مخطوطات تذكارية لبعض الشخصيات المشهورة في « سيريني » وانها بمثابة النوافذ التذكارية في الكنائس المسيحية .

ويرى على الجانب الجبلى للاكروبول مجموعة من الفتحات الصغيرة المقعرة والتي قال عنها انها سببت له الكثير من المصاعب حين حاول ان يتحقق من حقيقتها ، ويبدو انها جميعا كانت تستخدم اما كن للضوء ، ما عدا معبد صغير جميل لا يزيد في مواجهة صف طويل من الاعمدة في معبد « ابولو » وعلى صورتها الحالية ، فهي رومانية خالصة ، مما يجعلها تبدو عصرية تماما .

وعلى الجانب الخارجى للاكروبول وفي موازاة معبد « ابولو » يوجد معبد أصغر لأخت هذا السيد المعروف « أرتميز » يوجد معبد آخر اصغر لنفس السيدة ، مقام على حافة الصخرة وبزاوية كاملة معه ، وبهذا المعبد ضريح معقد شيد امام المعبد ، ومن الواضح انه بنى في وقت معاصر للمذابح الكبرى « لأبولو » وبنفس الطراز ليتناسق معه .

وحين عثر على المذبحين أول الامر كانا من الطوب غير المغطى ، ومن الجلى ان جزءا من الواجهة قد ازيل ، وقد كشف البحث الدقيق عن ارضيات حمام قريب يرجع الى العهد البيزنطى ، مبلط من ألواح من رخام « كرازا » والتي اوضحت نقوشه التى ازيل ومحي جزء منها ، انها الغطاء المفقود من مذبح « أبوللو » ومما يشوه تلك الحمامات ازالة الواحها واليوم يعاد بناء المذبح بنفس ارتفاعه الاول أى سبعة أقدام ليكون كما كان ، اكبر مذبح في الشرق في عهد الاغريق .

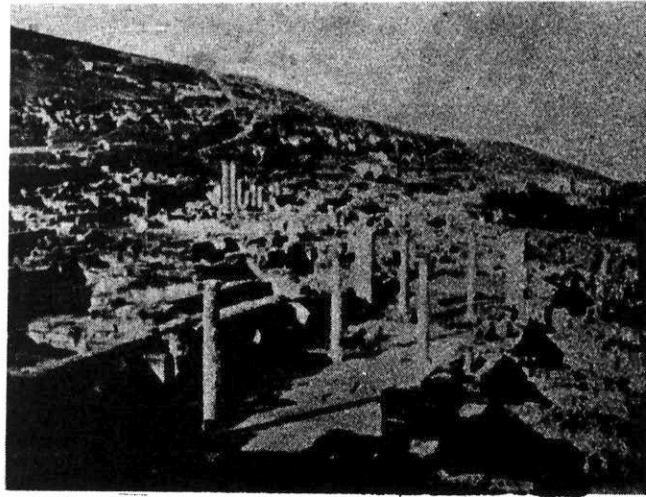
ويقول البروفسور ان رجاله ينقبون عن باقى الحمامات الاخرى في محاولة لجمع بقايا مذبح « الاخت » وهذه المعابد هي كل ما تبقى ، ولكن خلف معبد «ابوللو » الكبير والذي يبدو انه كان مركز كل شيء وفي مواجهته يوجد حمامان رومانيان ، واحد كبير معقد ممتد بمحاذاة حافة الصخرة ، وآخر من خلفه وبزاوية تجعل الجانب الصغير المستطيل يبرز من ناحية الجبل حيث توجد اطلال مجموعة من الحمامات الاصغر حجما والخاصة بعصر مبكر .

وإذا لم استطع ان اصفها لكم ، فلن يكون ذلك غلطة « البروفسور » فقد اصطحبنا الى كل شبر ، ووضح لنا كل شيء : هذه حمامات وتلك حجرات خاصة وحجرات عامة لتغيير الملابس ، اما حجرة الانتظار فهي بلا شك اجملها جميعا وتقع على امتداد الحمام الكبير وبمحاذاة الصخور وتشرف على منظر بدیع رائع ، اما السقف الغير موجود

فمرفوع على اعمدة دقيقة مثلثة نحت عليها نقوش كبيرة وفي النهاية في مواجهة المذبح حوض سباحة مربع الشكل في وسطه نافورة ، وفي نهاية الحوض تمثال لجسم امرأة بدون رأس ، من نوع تمثال « المفكر » للفنان « ر ودان » ومما لا شك فيه انه كان يعكس جوا من الصرامة والجدية على الضاحكين من المترددين على الحمام .

لقد كنت أنسى الارضيات ، لأنها كانت آخر شيء رأيته كان « البروفسور » قد سبقنا كغلام متحمس ، ثم اخذ يחדش بعناية تامة في احدى التجاويف في مكانين منخفضين بدرجات مختلفة ، وفي النهاية ظهر نوعان مختلفان كل الاختلاف من الفسيفساء ، وقد وقف يتأملهما في حب واعمجاب شديدتين بينما نحن نقرب لنرى ، لقد ظل ينظر اليهما كما لو كان يخشى ان يتلاشى من ناظره ، ثم همس يقول ان هذه الفسيفساء هي اهم كشف في الحمامات . اذ يبدو ان « جوزيفرس » المؤرخ الروماني قد كتب باسهاب عن ثورة اليهود في « سيريني » ولكن لم يعثر على اية نقوش خطية تؤيد ما يقول ، ودلالة العثور على هاتين القطعتين من الفسيفساء برسوماتها المختلفة كل الاختلاف وكذلك اماكن وجودهما ، تأييد لهذه الرواية .

دورثي



سيريني : منظر عام للآثار

اخذنا نحن ونشكو من يومنا الاول الشاق ولكننا الآن نحمد الله عليه فقد كان اليوم الوحيد المفيد ، فالسمااء اما ممطرة أو ان الرياح تعصف في عنف لدرجة لم تستطع انشاحنة ان تقاومها ، ان الرياح تزار حول البيت المكشوف من كل جانب كما لو كانت روح تصرخ بخبر مشؤوم ، اما كيف لم تقتلع الرياح البيت حتى الآن فهذه معجزة ، ها نحن نجلس في ركن من الحجرة حتى دون العزاء الذى كنا نجده بمشاهدة المنظر الجميل من المنزل ، ان الرياح تكاد تقلع النوافذ فتصبح مظلمة لا يرى خلالها شىء ، وبالطبع فإن مدرج الطائرات قد امتلأ بالمياه بارتفاع عدة بوصات ، وقد ارسل مضيفنا رسالة لاسلكية لبنغازى يستفسر فيها عما يفعل بضيفتيه الثقيلتين المتجمدتين من البرد ، ويحيرنى ان وجهه لايشى إلا بالمجاملة وحسن الضيافة بالرغم من منظرنا المضحك ونحن مكومتين حول المدفأة ، وقد تذرنا بكل الاغطية الممكنة ، واحطنا اقدامنا بطبقات لانهاية لها من الجوارب . اما اجسامنا فأصبحت كتلة لا شكل لها وهى مغطاة بالبرانس ، وعادة نهجع الى حجراتنا بعد تناول الشاى ، مما يعطينا الحرية للتخفيف من الثياب الزائدة ثم نستدفئ وسط البطاطين قبل ان نضطر الى ارتداء الملابس الشفافة للعشاء (لم نندم على ملابسنا الثقيلة في بنغازى) لقد كان ضيفنا يحاول تسليتنا بتقديم عشاء لمجموعة جديدة من الضباط كل ليلة .

ان الطقس يستغرق كل اهتمامنا ولا تظنوا اننا نجلس طول اليوم لا نفعل شيئاً الا ان نرتعد ، كلا ، فاذا ما طلعت الشمس حتى ولو لفترة قصيرة انطلقنا « نعبد » ! ! وهى عادة رحلات قصيرة خاطفة لزيارة معبد او قبر ، وفي احد الايام ظهر البروفسور في شاحنة واخذنا الى « آجورا » ! ومكان السوق القديم ، ويقبنى ان الاغريق القدماء كانت بنيتهم في قوة الحديد ، والا ما كانوا اختاروا قمة جبل يشرف على الاكربول حيث تشتد الرياح ، التى جرفت كل شىء امامها ، ولكن هذه العبارة ليست دقيقة ، فان ايطاليا ممثلة في شخص البروفسور قد عملت بجد في الحفريات هنا لمدة عامين بينما العمل في الاكربول قد بدأ قبل الحرب ، وفي « اجورا » ما زال كل شىء افقياً (على الارض) فالاعمدة التى اعيد ترميمها ما زالت على الارض والنقوش الخطية ما زالت تجمع وألواح المذبح تضم معاً ، ولكن التجميع الاخير لم يتم بعد ، ان المرء ليجتاج لخيال خصب لكى يتصور كيف يتم تركيب هذا كله معا في صورته الاولى ، كذلك فان الموقع نفسه مكشوف فلا يجب ان تترك التماثيل والاجزاء الصغيرة المنقوشة الدقيقة

مكشوفة هكذا ، كما هو الحال في مناطق المعابد فان قواعد التماثيل الحالية تزيد من جو الفراغ الذى كان انطباعتنا عن المكان اول الامر .

وخلال توقف انهمار المطر يسرع الاستاذ ونحن معه في الشاحنة الى المتحف ، وهو مكان رائع ، وهناك مبنيان : واحد يجمع فيه كل ما يكتشف ويترك حتى يتم تصنيفه واصلاح ما يحتاج الى اصلاح ، والآخر تجمع فيه الاشياء ذات القيمة - لعرضها - واني لسعيدة بروية الاشياء اثناء اعدادها للعرض ، تصوروها حجرة وراء حجرة وقد امتلأت بالقطع الصغيرة او الكبيرة والتي اذا اعيد تجميعها قد تكون تمثال « فينوس » للفنان « ميلو » او قد تكون لافريز مفقود او لنقوش خطية ذات قيمة تاريخية .

ولا تحسبوا انه لا يوجد شيء عصرى لمجرد اننى انزع للكتابة عن القديم ، فالواقع خلاف ذلك اذ توجد مدينة بأسرها كل مبانيها مكونة من طابق واحد ، وهذه المباني تنتشر في اصرار على احد جانبي الطريق العسكرى المتعامد مع الحصن الذى يتوج القمة المجاورة « للاجورا » واسفل الحصن بحوالى مائة ياردة وفي حماية مدفعيتها اخذت المدينة تنمو دفعة واحدة حول الميدان الخاوى ، والذى يذكرنى في كل مرة ترأر فيها الشاحنة ببعض القرى بالثيرول ، ان اماكن قليلة هى بمثل هذا البهاء .

دورثي

٢٤ نوفمبر

حالة من سوء فهم للآثار ، لقد حضر الاستاذ في الساعة الثامنة والنصف ، وتبعناه ونحن نقفز في حماس كالضفادع بين المعابد التى زرناها بالامس ، لمدة ساعتين حتى لنحس كما لو كنا نعرفها حجرا حجرا ، ويرجع تاريخ البلدة من القرن السابع قبل الميلاد حتى الرابع الميلادى ، وقد بدأ الاستاذ بمحاضرة عن تاريخ البلدة الذى استطعنا ان نستخلص منه مجموعة من الحقائق المتباينة ، منها :-

١ - ان كان معبد « دلفى » امر بعض اليونانيين ان يستعمروا ليبيا ، وقيل ان هؤلاء اخذوا يماطلون فأعيد عليهم الامر ست مرات ولذلك شيدت « سيرينى » وهى مدينة مشيدة من الحجارة ونحتت من جانب بارز في صخرة على ارتفاع ألفى قدم وتجشم عليها ، لتواجه البحر على بعد تسعة عشر كيلو متر الى الداخل من الميناء القديم « ابولونيا » .

٢ - ان الحفريات التى اكتشفت اخيرا في هذه المستعمرة ، هى النافورة واحواض الوضوء بمعبد « ابوللو » وكذلك كنوز المعبد للالهة القديمة .

٣ - ان المعبد الاول ذو اعمدة من الحجر الرملى، وقد سقطت الى الداخل ، ربما بفعل زلزال وان لم يوجد ما يؤيد ذلك .

٤ - ان المعبد الثانى قد شيد فوق الاول بأن بسطت الارضيات فوق الاعمدة الساقطة من المعبد الاول وهذه بدورها مفقودة تقريبا ، وقد اثبتت الاكتشافات المعاصرة باليونان تاريخ المعبد الاول، وقررت حقيقة ان طراز معمار المعبد محلى متطور .

٥ - ان المعبد الثانى ساحة ذات جانب نصف دائرى من الرخام .

٦ - ان المعبد الثالث مستطيل ذو اعمدة صماء ، وقع معظمها على الارض ولكن ايطاليا اعادت القليل منها الى مكانه ، وان هذه الاعمدة مكونة من اجزاء ، كل جزء منها عبارة عن قرص يحمل نقوشا خطية عمن وهبها للمعبد بنفس الطريقة التى توهب بها النوافذ التذكارية في الكنائس الحديثة ، وكان المعبد رومانيا .

٧ - وفضلا عن الرخام المستعمل هنا فان الحجارة الوحيدة المستعملة، هى انواع مختلفة من الحجر الجيرى عملت فيها عوامل التعرية عملها، حتى اصبحت كالاسفنج الكبير ، وهى كتلة مختلطة خشنة تمتلىء بالاصداف البحرية، التى يغاب عليها الاصداف الصغيرة التى تشبه المحار الذى يكثر في كل مكان بين الاطلال .

« سيرينى » فى ٢٧ نوفمبر

ها نحن نجلس والرياح تصفر، والمطر يضرب على النوافذ ، يا لعزاء اهل « سيرينى » القدماء ، لا عجب ان هجروا المكان ، ان الاستاذ جرجنا لنطوف حول الاطلال كلها في يومنا الاول ، ومع اننا شكونا من شدة التعب الا اننا نشكره لانه كان اليوم المشمس الوحيد. لقد اخذنا نقفز في سعادة من صخرة الى صخرة، ثم نزلنا الى ما كان يعرف « بثلاجة الحمامات » وانا شخصا ارى ان صخرة هنا يمكن ان تكون ثلاجة ممتازة ، وقد اثار اعجابى الشديد « الكالديريوم » حيث كان هناك نظام للتدفئة ، اما حجرة الانتظار فقيها مجموعة من الاعمدة الخزونية التى مازال يلعب منها بعض قطع الذهب المطعم بها ، وقد صعدنا من « الكالديريوم » صخورا ضخمة ترتفع اربعة او ستة اقدام حتى مستوى المدينة الرومانية ، وقد ساعدتني ساقاى الطويلتان ولكن دورثى الصغيرة القد المسكينة قد تعبت ، فكان البروفسور يقفز بنحفة الى اعلى ويساعدنى ثم ينادى على دورثى « تشجعى - تشجعى » وهى ما زالت تغوص في الطين على مستوى منخفض .

ولما تركنا الاستاذ، واستعدنا انفسنا ذهبت دورثى لتصوير النقوش ووجدت انا جزءا

من عمود ملقى في الشمس فرسمته رسماً تخطيطياً ، اما « راستوس » فقد جلس بجوارى ، يراقب كل خط رسمه ، وفي النهاية صدمنى بقوله « يمكنك ان تبغى هذا الرسم بأربع ليرات في بنغازى . » .

وبعد الغداء اخذنا نهبط الطريق المؤدى الى « ابولونيا » لنرى المقابر التى تمتد اميالاً ، آلاف منها فوق آلاف ، وكانت « سيرينى » في اوج عزها تضم اكثر من مائة ألف شخص ، اما اليوم فسكانها جميعاً من العرب ، وكم كنت اتمنى ان ارسم النساء وهن يستعملن ألواح المقابر العليا كألواح للغسيل ، ولكنهم لم يسمحوا لنا بالاقتراب منهن ، وهم يوثقون الجمال والحمير بأعلى جزء من الطبقة السفلى ، والابواب المصنوعة من الحديد المتعرج ذات اقفال هائلة مثبتة في الابواب الاغريقية القديمة ، شئ جميل حقاً ، واثناء رجوعنا اخذنا بعض الصور لمقبرة ، « جيمس هاملتون » الامريكى الذى كان اول من حاول التنقيب في « سيرينى » بطريقة علمية .

واثناء تناول الشاي حضر مضيفنا من « درنة » وهو انسان لطيف متعاطف خصوصاً وانه يعرف شيئاً عن ليبيا العزيزة علينا ، وقد انضم الينا سكرتيره ، وبدأنا نصعد الى المركز العسكرى لتناول المشهيات .

وصباح اليوم التالى ، كنا قد اتفقنا ان نذهب لرؤية مزيد من الاطلال (تملأ مساحة اربعة كيلو مترات) ولكن عاصفة هوجاء هبت فلم تستطع الشاحنة ولم نستطع نحن ان نقاومها ، لهذا بقعنا بالبيت حتى تناولنا الغداء ثم ذهبنا لرؤية المتاحف ، أنها شئ ملهم ، تماثيل كاملة فعلاً ، واحد منها في روعة وبهاء تماثل « فينوس » ليلو . . . مئات من التماثيل الصغيرة ، آلاف من الاواني الصغيرة والمصابيح ، ارفف باكملها بها كل القطع المكسرة من كل نوع ، وقد أثار اهتمامنا مراقبة الخبراء وهم يلصقون القطع الصغيرة معا ، وبذلك يستطيعون قراءة مدلولها بتزويدها بالاجزاء الناقصة .

طلعت الشمس في اليوم التالى فارتفعت معنوياتنا ، واخذنا الاستاذ لمزيد من التنقيب ، ومرة أخرى عدنا للقفز كالضفادع حول ، « الأجورا » بقرب معبد يحيط به نخيم للبدو ، وقد استاء الاستاذ بالاصول المرعية حين جلسنا ، نحن السيدات ، على ارض الشاحنة لتفادى العاصفة الهوجاء ، اما هو فقد صمم على البقاء في مهب الريح ، وعلى وجهه تعبير بائس ، وخاصة أن الشاحنة تدور حول المنعطفات فتقع آلة السينما الكبيرة في حنان بين ذراعية . كم يعجب بالصحفيات النساء ؟ .

وبعد الغداء صعدنا الى عربة هائلة واخذنا نبحث عن العمود . . ومعنا شاحنتان مملوئتان بالعساكر لحراستنا .. واستمرت الرياح ترأر في عنف انه طريق فظيع .. اذا صح

ان نسميه طريقا . فمنظر الجبل جميل واخاذ، وعلى بعد ستة عشر كيلو متر من «سيريني» بلغنا مقام سيدى رافع وهو من اصحاب «النبي» وبعد مضي عشرين دقيقة بدأت اشعة الشمس تنعكس على زجاج الشاحنات، ثم رأينا رتل الشاحنات الطويل يبدو على بعد فوق التل ، وهكذا قابلنا اثنا عشر ضابطا هم الذين سندهب معهم الى « درنة » غدا وقد ارسلت بنغازى تقول ان الجوفطيع ويستحيل ان تطير فيه « الكابرونى » خوفا من الوحل .

هيلين



سيريني : جزء من المقابر القديمة

درنة في ٢٨ نوفمبر

أمى الحبيبة

« من الشتاء الى الصيف في اربع ساعات » من الممكن ان يكون اسم فيلم سينمائى لمكانين في شمال افريقيا ، باتنا الى بسكره في الجزائر « سيريني » الى « درنه » في سيريناىكا .

غادرنا « سيريني » والصقيع من حولنا ، في السابعة والنصف في سيارة فيات صغيرة ، تسبقنا سيارة مسلحة اخذت تغيب عن انظارنا لدرجة اننا لم نرها الا مرتين، ثم سبقتنا

الشاحنات الثماني عشرة وهي ممثلة بالجنود .

وكان يقود سيارتنا نقيب لطيف المعشر ، وكان لحسن الحظ اصمما تقريبا فقد اخذ الضابط البحري الذى جلس بجواره يقود بدلا منه وقد طلعت الشمس فكانت الرحلة رائعة والطريق عبارة عن حجارة وطين وبها حفر هائلة ، بعمق أربعة أقدام مليئة بالمياه ، وعلى مسافة من مقام « سيدى يحيى » انتشرت على الطريق ، الكثير من الاطلال الرومانية او الاغريقية ، وكنا نتخذ دربا رومانيا قديما مبلطا بألواح الحجارة الرملية ولهذا حاولنا ان نتفادى الاخاديد التى نشأت من سير العربات البدائية دائما على هذا الدرب خلال العصور القديمة .

كانت المناظر خلابة ، وقد ساعد المطر على انتشار الزراعة ، حتى لقد بدأت تنمو قبل الاوان ، وقد استرعى انتباهى الشجيرات التى تحمل عناقيد العرعار الاحمر الفاقع وكذلك الازهار والثمار .

وفضلا عن الرسالة المسلحة المصاحبة لنا من الشاحنات فقد كان يبرز على بعد كل بضعة مئات الياردات من وراء شجرة ، شخص يلبس حراما كان يوما ما ابيض اللون وقد ضمه بحزام الخرطوش ويحمل ايضا بندقية طويلة ، فاذا مررنا به وقف متتبها ثم سرعان ما يختفى بمجرد ابتعادنا ، كانت وسائل الحراسة هذه ترك في نفوسنا شعورا بتوقع خطر بين حين وآخر .

وحين بلغنا القبة تناولنا غداء مكونا من السجق والنييذ ، وكانت وجبة شهية لان النهار قد انتصف تقريبا ، ولما اخذنا نقرب من « درنه » اخذ الجو يدفا ثم يصبح حارا ، وكنا قد غادرنا « سرينى » ونحن نرتدى كل ملابسا ، لهذا اخذنا نظرح جزءا منها عند كل لفحة هواء ساخن ، فكانت الواحدة منا تشغل الضباط الجالسين في المقعد الامامى في حديث هام ، حتى تتمكن الاخرى من خلع قطعة اخرى من ملابسها ، او طبقة من الجوارب ، وكلما ارتفعت درجة حرارة الجو ارتفعت اقدامنا حتى اذا جاء وقت الوصول الى درنة كانت اقدامنا قد ارتفعت بوضوح فوق اكوام الملابس التى امامنا .

ولم يمنهنا من خلع المزيد من الثياب إلا مراعاة اصول اللياقة والاحتشام ، وقد استغرقت الرحلة سبعة ساعات ونصف تماما لنقطع خلالها مائة وثمانية عشر كيلو متر . نحن الآن ننزل بمنزل المتصرف الضخم وهو اكبر مبنى رأيناه في افريقيا التابعة لاييطاليا وقد خصص للشؤون المدنية وقد انزلونى في حجرة واسعة لها شرفة كبيرة تطل على المدينة والبحر والجبال ، وهي جميلة خصوصا ساعة الغروب .

اما المتصرف فيعيش في بيت جميل صغير مكون من طابق واحد بجوارنا وله حديقة تكثر بها النباتات الاستوائية ، اننا نرى الكثير من الاشجار الخضراء والزهور مما يبدو غريبا لنا .

وقد تناولنا الغداء في تعريشة كروم ومعنا ضباط الصف الذين جئنا معهم ، بالإضافة الى ضباط الطوارئ وبعد الغداء تجولنا في البلدة ، وهى اجمل بلدة رأيناها في سيريناىكا وفي أجمل بقعة رأتها عيناي « ودرنة » او « دارنيس » كما كانت تدعى في العصور القديمة ، تقع على سهل مستو تماما ، والجبال ترتفع الى ستمائة متر على بعد ميل في اتجاه الداخل .

والحمد لله انها لا تمطر إلا نادرا هنا ، فالشمس ساطعة والجو حار اليوم ، وقد تناولنا العشاء في الفندق مع المتصرف ، وهو شخص طويل نحيل ومن اكثر الضباط الذين قابلناهم في افريقيا ذكاء ، كما كان هناك قائد « البحرية السويسرية » ثم « العميد » الذى لم يبد عليه اى اثر للتعب ، من توجيهاته لقائد السيارة في الرحلة من « سيرينى » وقد الحوا علينا في الذهاب الى المركز العسكرى لراقصهم ولكننا كنا متعبتين للغاية . . وانتم تعلمون اننا اذا لم نرقص نكون متعبات حقا .

هيلين

درنة في ٢٨ نوفمبر

أهلى الاعزاء

طلعت الشمس هذا الصباح لتساعد جماعة الضيوف على السفر ، وقد غادرنا « سيرينى » في اجمل طقس عشناه في سيريناىكا وكانت الساعة عند ذى الساعة ولكننا لم نصل الى درنة إلا بعد الساعة الثانية . ولم يكن ذلك بسبب الطريق ، ولو انه كان سيئا للغاية ، ولكن لان رتل الرحلة كان مكونا من شاحنات جديدة ارادوا استخدامها لغرضين ، اولها ان توصل بعثة دبلوماسية الى مصر ، وثانيها تجربة المحركات على طريق غير ممهد ، وبالطبع تسبب هذا في تعطيلنا عدة مرات .

وحوالى الظهر بدأ صبرنا ينفذ ، ولكننا كوفئنا على صبرنا بأن تحولنا من السير في بحر من الطين الى طريق جديد رائع امتد على مدى النظر صاعدا نحو الجبل متخذنا منحنيات وتعرجات كبيرة ، والتى ارغمنا على تحملها منذ حشرنا المتصرف في السيارة ونحن في « سيرينى » . . انتهزنا الفرصة واستطاعت كل منا ان تحصل على قطرة ليمون معصورة قبل ان نختنق ومازلنا في منتصف الطريق .

يبدأ الطريق الحديد حيث تنتهى منطقة يسودها نبات العرعر الكثيف ، ومن هناك وحتى « درنة » كان يخيل إلينا أننا نسير في منطقتنا المحبوبة « جبل نفوسة » اما الشجيرات الصحراوية التى يصل ارتفاعها الى قدمين والثى كانت الابل تحب ان تقضمها فلم تستطع ان تحفى ما تحتها من الصخور المتعددة الالوان ولا الرمال العالقة بها ، وقد حمدنا الله ان خلفنا ورائنا هذه المنطقة الشبيهة بمنطقة « مين » ذات الغابات التى تنمو فوق الصخر ، الى منطقة الصحراء الهادئة فاطعة ان « جيرترود بل » كانت على حق حين قالت ان الارض واهلها ترك بصماتها الدائمة على كل من يتصدى لها . . وهذا اخطر ، فاذا كانت « جيرترود » لم تستطع ان تتخلص من بلاء حبها للارض ، فهل نستطيع نحن ؟ اننى اضيف الى قولها « لا نفتقدونى كثيرا ، فالحياة هنا جميلة جداً » وحين اخذنا نطوف حول قمة الجبل ظهر فجأة من اسفل ، شاطئ ذهبي اللون يداعبه بحر هادى ، وقد تلاشى سطحه الاملس في زرقة السماء عند الافق البعيد ، حتى ان عين « الاميرال » سرحت للحظة عن الطريق واستدارنحونا يغمغم بشيء يحاول ان يصف به البحر الجميل ، تاركا السائق المسكين منهمكا ينظر الى لوحة الازرار ويتصرف حسب ما يرى .

ولابد ان وجوهنا وقد سال العرق عليها وكذا الطين والرمال التى تجمعت خلال سبع ساعات من السفر لابد انها كانت شيئا جديرا بالمشاهدة ، فما ان وقع نظر مضيفنا الحديد علينا حتى فوجئ بالمنظر ثم استدار الى خادم امرأايه ان يذهب بنا الى الخوض ، وفعلا ، قامت المياه الرائقة وعلب التجميل الصديقة بعمل الاعاجيب ، واستعدنا حالتنا العادية بعد ان تناولنا وجبة غداء ساخن تحت تعريشة الكروم في الحديقة .

ان كل ما يقابلنا كان يقول ان « درنة » اجمل مدن « سيريناىكا » بلا منازع حتى سئمنا سماع المزيد عنها قبل ان نراها .

ولكن الحقيقة ان الجميع كانوا على حق . . فهى قصيدة من الشعر الملون .. واصعب ما في الامر ان المرء لا يجد شيئا قريبا منها لتوصف به . . فهى فريدة في جمالها ، وانا اقول ذلك قبل ان يكون الوصف مبتذلا ، وعند دخولنا المدينة اتخذنا سهلا منبسطا بجوار البحر تمتد الزراعة فيه حتى حافة الماء ، وبرز مقر المتصرفيه من وسط الحديقة ، وقد انزلونا في حجرة الضيافة ، وهى حجرة واسعة ذات شرفة كبيرة نرى منها البحر الابيض المتوسط على الشمال ، والواجهة والجبال على اليمين ومن الامام نرى جزءا من البلدة والميناء .

ولم يكن الجزء الذى رأيناه من البلدة مثيرا ، ولكن في جولتنا الاولى سرنا اولا اتجاه الميناء ثم تحولنا الى الداخل فاذا بالبلدة في حضن الواحة . حقا انه لمكان بديع ،

ها قد قضينا اسبوعا وقطعنا اميالا سيرا في الشوارع الفسيحة المستقيمة النظيفة ، وعلى جانبيها منازل وجدران يضيء بياضها . . وهو ما يأسرك في الحال ، فاذا نظرنا من فوق الاسوار وجدنا اوراق اشجار الموز تظلل شجيرات الورد ، وعناقيد الكروم تتدلى كيفما كان من اسطح المنازل ، واذا نظرنا من بوابات الحدائق نجدها تبهر العين من منظر الحدائق الغناء واشجار النخيل الفارحة وهي تنحوى على انواع وفيرة من اشجار الفاكهة والخضر، والأزهار من كل الاشكال .

وعلى جانبي الطريق تجرى جداول المياه الفضية فيسمع لها خريير مرح كما هو الحال في «مدينة فأس» ولكن المياه هنا دافئة مما يشجع الصبية على اللهو فيها ، وفي الاماكن التي يصل فيها اتساع الجداول الى الخطورة فانها تغطي فلا تسمع إلا خريير الموسيقى ،

واستطعنا ان نتخلص مما علينا من اغطية، وان نصلح من زيتتنا قبل ان يحضروا الشاي ، واذا ذاك قابلنا دكتور اوليفيري عالم الآثار المشغول عن الحفريات ، انه يذكرني بزوج « جو » في رواية « نساء صغيرات » فبالرغم من انه من ارق الايطاليين الذين رأيناهم الا انه يمزج لغته الفرنسية بأطول العبارات الالمانية (انه لا يتكلم الانجليزية) وقد اخطرتة بنغازى بوصولنا وقد اعد نفسه لظهور امريكيتين صحفيتين بأن جمع قائمة هائلة من المعلومات والحقائق والتواريخ ، وبمجرد ان احتسنا الشاي لم يكن بد من ان نطبعه ونذهب لنلقى مجرد نظرة على الاكروبول ، وقد امتدت بنا هذه « لمجرد نظرة » ساعتين واضاف دليلنا ان هذه المقدمة السطحية ستعطينا فكرة انه يستطيع ان يرينا شيئا في الغد ، وحب الاطلاع بالطبع حب مكتسب ، ولكننا بالتأكيد معجبين بكل انواع الجمال بـ « سيريني » ومأخوذون بعظمتها وجمالها ، واذا كانت هذه هي ما تثيره من اعجاب اليوم ، فعلى أى صورة وأى بهاء كانت عليه منذ خمسة وعشرين قرنا مضت.

دورثي

بعد الغداء ٢٤ نوفمبر

لقد انتهينا من الاكروبول يوم أمس، حضر البروفسور ونحن ننتهى من الافطار وخرجنا بصحبته ومعنا الخادم العربى يحمل لنا آلات السينما وادوات الرسم «هليلين» ومبنى الاكروبول مشيد على مكان مناسب على ارض مستوية وفي موقع جميل بعيدا عن مهب الرياح وبشرف على كل المنطقة .

وعلى هذه الحافة كان معبد ابولو اول مبنى يشيده كما بنى المذبح في مواجهته ، ولم يبق اليوم من كل ذلك إلا سرايب تحت الارض تحوى الكنوز فقد هدمها احد

الزلازل ، فالاعمدة تبدو كأنها قد سقطت داخل المعبد ، ولما جاء جيل آخر ليعيد بناءها لم يجدوا الشجاعة لإزالة ما تبقى من الانقاض المقدسة بل فضلوا ان ينوا اساس بنائهم فوق الاعمدة الساقطة من البناء القديم ، ولم يبق من هذا البناء الثاني إلا تصميم الاساس وهو ما يبدو متماثلا تماما مع البناء الاول مع اضافة ساحة ذات نهاية نصف دائرية ولقد وجدنا انفسنا نتعثر ونحن نبتعد وعبونا على آلات التصوير في محاولة للحصول على بعض الصور الجيدة اثناء ظهور الشمس احيانا .

ويبدو ان هذا البناء قد قوض فتهالك خلال القرون العديدة التي اشرف منها على معبد البلدة دينيا وسياسيا ، فقد بنى الرومان المعبد الثالث في القرن الثاني فوق الآثرين السالفين هو ما تحاول ايطاليا بلا كلل او تعب ان تبرزه وتستعيده ، والمبنى الثالث اكثر تعقيدا من سابقه ، واطن انه قد بنى حول معبد اغريقي ، لأن الاعمدة الاغريقية لا تكون مزدوجة كما هي الحال عند الرومان .

اما المنازل فمختلفة عن اية منازل رأيناها في افريقيا ، فعلى الباب الخارجى بنيت تعريشات بعرض الواجهة تغطيها الكروم ، وكذا فوق سطوح ووسط المنازل حيث تكثر تعريشات الكروم ، اما خلف المنزل فتنتصب اشجار النخيل الكثيرة تظله وتحميه

وقد جاءنا المتصرف بأحد الاعراب ليحمل لنا آلات التصوير ، وقد صورنا الكثير من المناظر . وفي احد الايام سمعنا صوت طريقة قطع البلح ، فتبعنا الصوت حتى وجدناه في حديقة قرية ولما وجدنا الباب مفتوحا ، دخلنا حيث كان هناك عدد من الرجال قد تسلقوا الاشجار واخذوا يقطعون البلح الذهبى اللون ، فأخرجنا آلات التصوير وفي الحال اختفى الرجال المسلمون ، وفي نهاية الامر عثرنا على جندى اكثر شجاعة من الباقين ، فخلع حذاءه ورباطه واحضر حبلين احاط الشجرة ووسطه بواحد منها وبالثاني عمل رقم الثمانية الاقرنجى ثم ادلى بقدميه العاريتين فيها وبدأ صعود جذع النخلة الذى يرتفع خمسين قدما وهو رابط الجأش .

وسوق درنة عبارة عن اسواق صغيرة جداً يستطيع المرء ان يمر بها جميعا في ربع الساعة ، وهى لهذا السبب رائعة ، فان صغرها يجعلك تحس كما لو كنت تألفها وتعرفها منذ امد ، وعند المدخل تجد سقفا مغطى بتعريشات الكروم ، تماما كما في « فزان » ولكن ما ان تمضى بضعة اقدام الى الداخل حتى يتحول السقف الى سقف بقباب وترك فزان الى مراکش . . الى « سفاقس » في جنوب تونس .

واهل المدينة ايضا مختلفون ، فهم في الجبل صارمون فيهم جفاء يصل الى العبوس ، ولكننا نعود لأهل الصحراء الباسمين السعداء المحبين لنا حيثما مررنا وهم يرسلون التحية

للفتيات اللاتي يلبسن نفس البرانس الطويلة التي يلبسونها هم ليحموا انفسهم من حرارة الشمس ، كان شيئاً عادياً ان توقف الفتيات العربيات لنبدى الاعجاب بحليهن ولتقارنهن بما نلبس ، كان يوم أمس عيد « الشكران » وكان الجو دافئاً مشرقاً كأى يوم من أيام الصيف ، وكلما تذكرنا الاسبوع الذى قضيناه في « سيرينى » نكاد نتجمد من شدة البرد ، زاد شكرنا حقاً ، ومن الغريب ان يأتى نفس اليوم في العام الماضى كما جاء في العام الحالى بعد اسبوع كان الجوفيه فظيماً ، ففى العام الماضى كنا في « مراكش » وكان الجوفظيماً ، ثم ذهبنا الى احد المزارع التجريبية « بالدار البيضاء » لنصور الابصار حيث قضينا الصباح نتذوق الخمور الوطنية ونضحك ونذكر ان اهل بلادنا لو رأونا لحسدونا على هذا الجو ، كذلك اليوم فاننا نتذوق شراباً مخلوطاً له طعم غريب ، وقد علم رئيس الشرطة بالبلدة بطريقة ما ان اليوم عيد امريكى فجاء يقدم لنا كوكتيل بعد الغداء واعتقد اننا سنسمى هذا المشروب « خاص بدرنة » وقد اتبع الطريقة الآتية في اعداده اتى بابرقي ماء خال ، ومشى الى البار ثم بدأ بآخر زجاجة على الرف الاعلى وهكذا الزجاجة التالية حتى انتهى الى آخر زجاجة على الرف السفلى ، ومن كل يصب كمية حسبما يترأى له ، ثم اخذ بقلب الخليط بقوة لمدة بضع دقائق ، ثم ملأ لكل منا كوباً ، ولست في حاجة لأن اقول اننا قضينا عصر ذلك اليوم في سبات عميق .

(مازلنا بدرنه)

٢٩ نوفمبر

أهلى الاعزاء

كلما فكرنا ان الرحلة اوشكت على الانتهاء انتابنا الاسى ، فبالرغم من انها كانت رحلة شاقة إلا اننا استمتعنا بكل دقيقة فيها . . . ولكن . . . سنبحر غداً الى « سيراكوزا » وقد توجهنا عصر اليوم الى مكتب « فلوريو » الملاحي لحجز تذكارنا ، ولما طلبنا الشاب اللطيف المكلف بخدمةتنا ، جوازات السفر ، ناولناها له ، وكدنا نموت من الضحك حين قرأنا ما كتب ، فانه وهو يحاول ان يقرأ اول جوازات سفر امريكية رآها في حياته حاول المسكين ان يستخرج بعض البيانات المدهشة ، لقد كتب التذاكر باسم « مس توليدو - اوهيو - ورفيقتها » وسنبحر غداً على السفينة طيبة تحت هذه الاسماء .

ان الموضوع الذي يشغل بالنا ويستغرق كل احاديثنا هو موضوع الملابس ، فما زلنا قلقتين على حقيبتنا الوحيدة التي اخذناها الى « سيرينى » حين طرنا الى هناك منذ

اسبوعين لقضاء يومين — فلما جئنا الى هنا في رتل السيارات كنا نأمل ان يلهم الله احدهم فيرسل متاعنا الى الباخرة التي وصلت بالامس وتغادر درنة غداً ان شاء الله . الوقت عند الغروب

نحن متعبات ، وقد صعدنا الى الحصن الامريكى في طريق طويل شاق لنصل الى الحصن الذى اقامه « وليم ايتون » في عام ١٨٠٤ .

لقد صدمنى ما اكتشفته من اننى لا اعرف إلا القليل عن الحرب في ليبيا ، واعتقد اننى لم اكن ادرى حتى بوجود حصن هنا ، ولكن المتصرف حفظه الله ، زودنى بنشره باللغة الايطالية ، ولهذا فأننى احس اننى قد عرفت كل شيء عنها ، ولن أولمكم بتفاصيل كثيرة خصوصاً وانها صفحة غير مشرفة عن تاريخنا الوطنى ، لكن الغريب أن نجد أثراً أمريكياً على هذا البعد الشاسع عن الوطن . ومهما اختلفت اراؤنا في اخلاقيات هذا العمل ، فيجب ان نعترف ان « الجنرال » قد قام بعمل رائع ، فقد اختار قمة تل تشرف على الواحة والمدينة معا ، وشيد حصناً من الحجارة التى عززت بما تم بناؤه حولها من المنازل الحجرية التى تؤوى اليوم قبيلة بأسرها من البدو الرحل ، الذين كانوا من اللطف بحيث سمحوا لنا بأن نصور ما نشاء .

لقد عدنا لنراقب الشمس الغاربة من شرفتنا ، ونرى البحر تنعكس عليه السحب الوردية اثناء غروب الشمس ، وراء التلال البنفسجية فتدوب في لون البحر ، بينما يبرز القمر كاملاً فوق البحر في آخر ليالينا في افريقيا .

دورثي

لقد قضينا آخر يومين نودع فيهما افريقيا في حزن واسى ، ولكن بنغازى ارسلت صباح اليوم اشارة لاسلكية بأن الباخرة ستأخر يوماً آخر .

وبينما كنا نتناول شراب الليمون ونتمتع بأشعة الشمس ، اذ بنا نقابل ملازماً بسلاح الفرسان يمتطى حصاناً رائعا أخذت أطعمه بقطع السكر فاحتذى الخادم العربي حذوى فملاً يديه بالسكر ، وقد اخذنا الملازم الى مقر قيادته حيث شيد قرية وبني بيته الصغير وسط كتل من الورود والأزهار ، وهو يذكرني بالضابط « بيانكى » في « بونجيم » وكلا الرجلين في سن الخامسة والثلاثين وقد مرا بمرحلة فورة الشباب ، ووقعا في حب افريقيا بمتاعبها وشدة حرها وبردها وشمسها الحارقة والقتال الذى ينشب احياناً مع ثوار صعاب المراس ، وكذلك الصداقات الدائمة التى لا تنتشأ إلا في مثل هذه



درنة : جزء من القلعة الأمريكية

وبعد ذلك ذهبنا الى الناحية الاخرى من درنة والتي تحد المدينة ، وصعدنا التل في طريق ضيق حتى تكاد السيارة ان تسير على اطار واحد ، ثم دخلنا الى الساحة التي تحوطها ابنية المستشفى الحديد ، وقد اعجبنا كثيرا بالحجرات والهواء الطلق حتى لقد وصلنا متأخرتين عن موعد الغداء ، وكادت تضيع علينا زيارة « مرتوبة » وهي موقع صغير بالداخل ، وكان المتصرف يقود المسيرة في شاحنة وتنبهة نحن في السيارة الفيات ومعنا ثلاث ضباط .

وحين تركنا « درنة » وراءنا بدأنا مباشرة نصعد دربا شديدا الانحدار ، واخذنا ننظر نحو الحلف لدى كل منعطف لنرى المنظر الممتد ، فقد كانت « درنة » ترقد مستكنة اسفلنا بيضاء ناصعة في مهد من اشجار النخيل ، وكلا اللونين الابيض والاخضر يرنو بجوار زرقة البحر الابيض على المدى البعيد .

وفجأة وجدنا انفسنا فوق الهضبة العظيمة وبدأت السيارة تميل على الدرب الضيق ومن خلفها الشاحتان المألوفتان المملوءتان بجماعة العساكر المسلحين .

ولما كانت الاشارة اللاسلكية قد اخطرت بمقدمنا ، فقد تجمع الجنود الارتريون

لاستقبالنا لهذا اخذنا نصورهم بينما مضى الضباط في انجاز اعمالهم الرسمية ، ثم
صحبنا القاضى بعد ذلك لتناول القهوة في حديقته ، وحين بلغنا حافة الجبل كان الفسق
قد بدأ واخذنا نهبط الى دره والاضواء تتلألأ من اسفل . . وعدنا نغمم مرة أخرى
هذه آخر ليالينا في افريقيا .

هيلين

في القطار الى نابولي

٥ ديسمبر

أمى الحبيبة

نحن هنا أقصد أن جزءا منا هنا ، اذ ان آلات السينما الثمينة ، والمتاع ما زالت في بنغازى ،
وفي آخر ايام درنة اخذنا نبعث بالاشارات اللاسلكية المحمومة — كما ساعة تقريبا —
لكل الذين عرفناهم في بنغازى نلح عليهم ان يبعثوا بالامتنع والافلام الى السفينة ، ونحن
نأمل ان نجد بينهم من يأتينا بها ، ولكن حين صعدنا الى طيبة لم نجد متاعنا ، وأدهى من
ذلك ، لم نجد افلامنا اى ان عمل اربعة أشهر باق في «بنغازى» ولم يشحن الى السفينة .
لقد جاء ضابط الكوكتيل لتوديعنا بعد ان تناولنا غداء صاخبا ، ووعدوا بالاتصال
لاسلكيا بينغازى مرة أخرى طالبين ارسال شخص يحمل حاجياتنا في صباح اليوم التالى.
ولكن لم يحالفنا الحظ .

فعندما ابجرت السفينة حول رأس درنة وجدنا انفسنا وسط أعنى عاصفة يمكن ان
تخطر على بال المرء ، ولم نر بنغازى مثلما كان مقررا في صباح الغد ، ولو كان البكاء
مجديا لأخذنا نندب بشدة . وبالعكس فلاننا لم نشعر بدوران البحر فقد التهمنا قطعة
هائلة من « الستيك » والكرنب وهو اول « ستيك » نتناوله منذ رحلة القارب في
« سيرت » بصحبة الضابط الذى سمح لنا ان نطلب ما نشاء إذ ذاك تناولنا طعامنا في
ابهة ووقار .

وقد وجدنا راكبا من درنة وهو موظف مدنى ، وكان مريضا جداً ولكنه كان تسليتنا
الكبرى ، ففى كل مره يظهر فيها نراه ممسكا بكمية موز هائلة . . مسكين . . لقد
حجز تذكرة الى بنغازى ولكنه يجد نفسه الآن متجها الى صقلية .
وقامت عاصفة هوجاء ليلة وصولنا الى « سيراكوزا » فكان من الصعب تثبيت الجسر
الارضى ، وحين استيقظنا في الصباح وجدنا « السولونتو » راسية امام الفندق تماما ،
وبعد ان تعبنا من القلق على امتعتنا فقد فكرنا في طريقة لاسترجاعها .

ان قبطان « السولونتو » هو الآن قبطان « غاريالدى » ويبحران في نفس الخط . .
ونعلم ان « الغاريالدى » ستبهر الى بنغازى خلال هذا الاسبوع ، وفي رجوعها تتوقف
بـ « سيراكوزا » ومنها الى طرابلس حين يعود « السولنتو » من طرابلس فسيقتل الركاب
والبريد من « الغاريالدى » اليها ومن ثم تواصل الاجار الى نابولي . وعلى هذا فما
ان انتهى الافطار حتى تقدمنا من الضابط الاول للسفينة « سولنتو » وقد دهش بالقطع
فان هذا الرجل لن يدهش اذا وجدنا في الفردوس او في الجحيم ، وقصصنا عليه قصتنا
الحزينة ، فوعده بان يرى قبطان « الغاريالدى » ويطلب منه الحصول على امتعتنا من
« بنغازى » وتعهده بأن ينقلها بنفسه الى « سيراكوزا » وان يبحثها معه على « السولنتو »
حتى نستلمها في « نابولي » .

وغادرنا « السولنتو » مسرعتين الى مكتب حجز التذاكر، لنحصل على تذكرتى نوم
في القطار المتجه الى « نابولي » وما كدت استلم التذاكر، حتى قال الوكيل ملاحظة
كادت تقتلنى

« عليكم ان تخرجوا وتمشوا »
ونظرت اليه وعقد الرعب لساني ، وحاولت ان اتكلم :
« نخرج ؟ ونمشى ؟ متى وأين ؟ »
وجاء دوره لينظر الى متسائلا .
« اين كنتم ؟ »

واجبت في ضعف « افريقيا »
فقال « ألم تسمعوا بأن بركان اتنا قد ثار من جديد ؟ » .

وكانت هذه اخبار جديدة علينا ، ان نضطر لأن نمشى حول الحمم المتدفقة وفي
الثامنة والنصف مساء (؟ ! ولكننا فعلا درنا حول الحمم .

وقد حاولنا استمالة حارس القطار باعطائه الكسثناء المشوى، وذلك لكي يراوغ
باقى الحراس ويحمل عنا حاجياتنا (وطبعاً لم نكن نبكى في هذه اللحظة على الحقائق
التى تركناها في بنغازى) اما القرى التى مررنا بها فكانت في حال يرثى لها ،
وقد رأينا احد المباني الذى اقتحمت الحمم حائطه الخلفى وغمرت الحجرة الخلفية ،
ولكن الحجرة الامامية كانت ما تزال محل بقالة بها بعض الجنود .

وقد وصل ارتفاع الحمم في بعض المسلات الى مائة قدم على الاقل ، ومشينا خلال
خميلة برتقال نحرق ضوء على البعد حيث أخبرنا الحارس اللطيف ان ألف رجل
يعملون على نسف خطوط السكك الحديدية . . وما كان ان ينبغى ان تفوتنا هذه الفرصة ،

فلما وصلنا الى مكان الجسر طلبنا الاذن من الضابط المشرف ، وقد بلغ من سروره ان سمح لنا بالتصوير وايضا ارسل جنديا لتعطيل القطار حتى ندركه ، وقد رأينا مئات من المشاعل ، وأملنا في ان تكون الصور جيدة .

وقد اكتظ القطار ، اما حارس القطار الاخر المجامل فقد ساعدنا في العثور على مقصورتنا وعلى حمل الامتعة ، ثم قادنا الى مطعم القطار ، وبدأ القطار يسير ، وهذا ما اسميه كياسة ومجاملة .

ونحن الآن على مقربة من « نابولي » والثلوج تحيط بنا من كل جانب .

هيلين

روما في ٥ ديسمبر

أهلى الاعزاء

لا يمكن ان تتصوروا الاحساس بالدهشة ونحن في مدينة كبيرة ، اننا ندرك الآن احساس الشخص الممجى المسكين اذا نقل فجأة من بيئته الاصلية الى « المدينة » فبعد انقضاء الرحلة الطويلة مع القافلة بالجزائر وعودتنا الى « بسكره » ذهبننا لزيارة « حديقة الله » وقد استغرقنا وقتا طويلا ونحن نحاول ان نفكر سبب غرابة شكل الارض واخيرا اكتشفنا انها مكسوة بالعشب الاخضر بدلا من الرمال ، ومن « بسكره » الى الجزائر « احسنا بنفس الشعور المثير بالنسبة للاشجار ومقارنتها بالتخيل ، وفي هذا العام كان من العسير علينا التعود على رؤية النساء حولنا بعد ان كنا « الضفادع الوحيدة في البركة » .

والآن ونحن في « روما » فاننا نبدو في مظهر الريفي المرتبك ، ونحن نسرع وسط حركة المرور التي تشق الطرقات (كم احب لان اركب جملا هادئا مسالما يعتمد عليه) . بالامس سمعنا بعض الاشخاص الاميريكاني وهم يتحدثون ، كدنا نندفع نحوهم معانقين ، لولا ان كبحننا جماحنا ، كل هذا ولم نقص عليكم قصة الرحلة المثيرة حتى وصلنا الى هنا ، وصلت « طيبة الى « درنة » متأخرة عن مواعدها بضعة أيام ، وصعدنا اليها ونحن نجهل مكان امتعتنا ، فوعد القبطان ان يتوقف عند « بنغازى » ولكن ما ان ابحرت السفينة خارج حاجز الامواج حتى هبت عاصفة هوجاء حملت السفينة الى « سيرا كوزا » وهكذا لم نر بنغازى حتى الآن ، يالها من عاصفة . . لقد اخذت الامواج العاتية تلطم السفينة فتميل مرة على جانب ومرة على الجانب الآخر . واخذت المقاعد والمناضد التي كانت مثبتة بالارض تنتشر حول الصالون ، اما الركاب الاثنى عشر او اكثر الذين كانوا على ظهر السفينة فقد اختفوا بالتدريج ، وكان هناك شخص خائف اكثر منه

مريض ، وحين | يجد مقعدا يناسبه فقد جثم على المنضدة في وسط حجرة الصالون وحين سقطنا فجأة ارتمى منبطحا على المنضدة وهو يئن ويمسك بجوانبها ، فلما هدئنا بعد فترة رفع رأسه وهو يغمغم « اذا سألتكم عنى روجتى فأخبروها اننى قدمت » .

وفيما عدانا نحن الاثنين فان المسافر الوحيد الباقي كان مراسلا سبق ان سافر للولايات المتحدة مع لجنة الديون الإيطالية ، وقد أصبحنا اصدقاء قبل ان تنتهى الرحلة ، وقد اكمل القبطان المجموعة ، فكنا الاربعة نتناول الطعام وحدنا في حجرة الطعام الهائلة .

واعتقد اننا مدينون للقبطان بالشكر على اننا لم نصب بالتهاب رئوى ، فحين رأنا نرتعد في ملابسنا الخفيفة امر الخادم ان يزودنا بكومة من البطاطين وقد اخذنا نروح ونغدو على سطح السفينة كهنديتين اميريكييتين في بطاطيننا الحمراء ، ومع هذا كدنا نتجمد .

ووصلنا آخر الامر الى « سيراكوزا » في منتصف الليل وسط عاصفة ثلجية ، ولم يستطع القبطان ان يرسوا قبل ساعة ونصف بلا اية معونة من سلطات الميناء الموجودة في البر والبحر .

وقضينا صباح اليوم التالى نرتب مع الضابط الاول « لسولنتو » عملية الحصول على متاعنا وارساله الينا في « نابولى » ثم ذهبنا للحصول على التذاكر الى « روما » وسمعنا ما فعلته ثورة بركان « اثنا » وليس غريبا علينا ان نختم رحلتنا عبر ليبييا التى شهدت احداثا وزخرت بالحوادث ، بأن نضطر لان نتسلق حول بركان تحوطه الحمم الملتهبة في ضوء القمر ونحن نتدثر بكل ما نملك من ملابس ، وكل منا تمسك بيدها زجاجة خمر لنستدفئ بشرب ما فيها كلما سكنتنا عن الكلام .

وبالطبع فقد اختلت مواعيد القطارات فوصلنا « نابولى » حوالى التاسعة وكان علينا ان نتأكد من وجود حاجياتنا الباقية وان نقل الوقت حتى يقبل قطار « روما » في العصر . . . وها نحن الآن ندخل روما .

دورثى

روما فى ٧ ديسمبر

أهلى الاعزاء

كانت روما عند وصولنا كالفردوس بالنسبة لنا ، ولم نكن لنجد من يستقبلنا تلك المقابلة الحارة سوى العقيد « كاستيللى » وزوجته وهما اصحاب « فندق وندسور »

وكانت كل منا قد تركت حقيبة بها ملابسها الثقيلة فقامت مدام « كاستيلي » بنفسها بفتح الحقيبة واستخراج الملابس واعدادها لنا ، وحين قادتنا الى حجراتنا المألوفة وجدنا ملابسنا المحبوبة معلقة في خزانة الملابس ، وفي صباح اليوم التالي ارسل « العقيد » الى محل الغسيل يطلب معاطفنا ، فلما خرجنا احسنا بالدفع لأول مرة منذ . . لا احب ان أقول منذ متى .

كانت أول زيارة لنا هي زيارة الأمر « استوتو » مدير عام المستعمرات . وقد قابلنا لدى الباب واجلسنا في مقعدين مريحين وناولنا السجائر ثم جلس على كرسيه مسترخيا ، وكان من الواضح انه ينتظر ان نقص عليه وصفا « لرحلتنا » اذ قال « والآن ارجوا ان تكونوا قد استمتعتم برحلة جميلة ، يا للرجل المسكين ، لقد افاق على قصة امتعتنا والسينما التي تركناها خلفنا ، وكصديق ، قاطعنا بأن ارسل رسالتين لاسلكيتين لحاكم بنغازي يرجوه فيهما ان يحصل عل حاجياتنا ويرسلها لنا على السفينة الى « نابولي » . والآن ها نحن نجلس وننتظر ندعو الله . وقد حضر امس المراسلون ليروا ان كنا حقيقة واقعة ام اننا فقط نمتلك « خيالا سحريا » ، كما وصفنا احدثهم . . . ان خيالي ليس بالقوة التي تصف نصف ما كتبنا عنه .

دروثي

١٠ ديسمبر

أهلي الاعزاء

ان كل الحوادث الايطالية بيد افريقيا ، تبدو هادئة ووديدة ، وان كنت لا استطيع ان اصف رحلتي الى « نابولي » امس بذلك ، لقد خرجت في السادسة صباحا ورجعت في الثامنة مساء ، فقد ابرق الضابط الاول على « السولنتو » ان كل متاعنا بحوزته وانه سيبقيها حتى اعرض بنفسى لاستلامها وقد زودني « آمر » « لستوتو » بالاوراق الرسمية التي تمكنني من استعادة افلامى السينمائية من الجمرك ، ورسالة شخصية لاحد اصدقائه الذي يستطيع ان يساعدني اذا اراد .

وكانت السماء تمطر والجو بارد حين وصلت الى « نابولي » وكنت اشعر بارتفاع في الحرارة والزكام فلم اتردد في ان ابلأ لصديق « الأمر » « استوتو » لارى ان كان على استعداد لتلبية نداء صديقه .

وقد اثبت العقيد انه منقذ ومساعد كريم ، وانه مستعد تماما لمساعدتي كما كتب

له بذلك ، وقصصت عليه قصتي فارسى فى طلب « المسؤول » مارشال » وهو ما يعتبر وظيفة وسطاً بين الضباط المسرحين وليس لدينا بالجيش مثيله ، فهى رتبة بين الملازم والנקيب ، وجعل العقيد ينصت لقصتي فلما فرغت سألت فى احترام « سيدى العقيد » ان السولتو قد ابجرت امس متجه الى « سردينيا » ولن ترجع قبل بضعة ايام . واحسست بقلبي يسقط الى اقدامى حين تذكرت ان الامر « فيليبرتو » قد ابرق انه سيحتفظ بالامتعة حتى يسلمها لى شخصيا ، ولم استطع الا ان اشهى واسرع العقيد لتهديتي بأن اخبر المارشال بأن يأخذ مفاتيحي وجميع اوراقى الخاصة ويتوجه الى الميناء والمكاتب والارصفة والحمرك او اى مكان آخر قد يتصور وجود الحقائق التسع به وان يحضرها ، وجلسنا ننتظر لمدة ثلاث ساعات ، فلما لم نسمع اية انباء فقد ذهبنا لتناول الغداء وخلال تناول الطعام جاء جندي يقول ان الامتعة قد وصلت .

وحين عدت الى مقر القيادة ووجدت ان المنضدة ثن من حملها من الحقائق وآلات السينما ، ذهبت اليها واخذت اعانقها ، ثم استمعنا لقصة المارشال .

لقد سألت فى كل مكان ولكنه لم يجد اى مئاع ليس له صاحب ، وكاد ان يعود يائسا عندما وقعت عيناه على كومة تحت قطعة قماش من أقمشة الاشرعة ، وقال ان بحاراً سكيراً كان يجلس فوقها يغنى فى مرح وهو يتجرع من زجاجة الخمر ، وتقدم منه المارشال ليتحرى الامر . . وهناك وجد الامتعة المفقودة ، ولما سألت البحار ، اقر بأنه قد ترك لحراستها ولكنه رفض ان يسلمها الا للانستين الاميريكتين وسألت ولكن كيف أمكنك ان تسترجعها اذن ؟ فقال بكل بساطة يا سيدتى . . لقد قمت باعتقال البحار بتهمة السكر والعردة .

وهكذا ابرقت لهيلين لتتوقع رجوعى بالقطار السريع الذى يصل فى المساء ، وتركت مبلغا من النقود للمارشال ليحجز لنا مقعداً جانبيا فى قطار روما وليرتب وضع الامتعة فى القطار ، ومضيت لآتمشى مع العقيد .

وتصوروا ذعري حين وصلت الى المحطة فلم اجد اثرا ، لا للمارشال ، ولا للأمتعة وتوجهت الى ناظر المحطة والى الحراس ورحت اقصى عليهم قصتي وانا لا هثة ، ولكن البحث لم يسفر على شىء ولم يبق على قيام القطار سوى خمس دقائق ، وفجأة سمعت صوت المارشال يعلو على صوت الجماهير سنيورا ، وجاء معه مجموعة من الحراس صف من الجنود يمشون خلفه ، واخذنا نقذف بالحقائب فى القطار كيفما اتفق ، وانا اظن ان لعنة ما ، لا بد انها تلاحق هذه الامتعة ، فقد تبين ان الشاحنة التى احضر عليها الامتعة قد كسرت فى الطريق الى المحطة واضطر لطلب شاحنة أخرى .

وحتى تكون النهاية سعيدة ، فقد انتصب واقفا وقفة انتباه وحيا وهو يقول في ببطء ولكن في وضوح وفي منتهى الحرج .- « آسف يا سنيورا - ان التأخير تسبب في عدم استطاعتي حجز المقعد الجانبي في القطار في اتجاه غرفة القيادة الذي امرني العقيد بالحصول لك عليها ، ولكن هذا المقعد قد تم حجزه لهذا السيد الذي يجلس عليه الآن ، ثم انصرف ، وتمشيت في ممر القطار ، ولما عدت وجدت السيد قد غادر المقعد بعد ان فهم التلميح ، وبهذا استطعت ان احصل على المقعد الذي طلبته .

وقابلتني « هيلين » بالمحطة وتعاونوا على نقل حاجياتنا الى الفندق حيث فرح موظفوه بالامانة فرحتنا بها .

وقد احتفلنا بعودة الامتعة في « المقهى » والآن سأذهب لانال قسطا من الراحة التي استحقها عن جدارة .

دورتي

روما في ١٥ ديسمبر

أمي الحبيبة

ان الحياة مازال تدب في حمية ، ونحن متعبات من المعركة لاستعادة السينما ، ومنذ يوم وصولنا ونحن نذهب الى الوزارة ، وبعد عشرة ايام تحطمت فيها اعصابنا ، حصلنا على كل شيء حتى مظلة دورتي ، وقد ارسل لنا اليوم مكتب شئون المستعمرات مجموعة من الرسائل التي وردت من بنغازي ، وهكذا يعود لنا حظنا مرة أخرى ، فاثناء تناول العشاء احضر ساع بطاقة الدكتور الضابط ، لقد استطاع ان يحصل على اجازة عارضة وجاء يزورنا ، وبعد أيام قضيناها في جدل مع رجال السينما والمصورين فانه قد تمت تسوية كل شيء في بضع دقائق من اليوم التالي ، فسيعرض صورنا في قاعة المتحف ، وهكذا لا داعي لأن نرى احداً .

كذلك فان « آل كاستيلي » أصحاب الفندق ، كانوا في منتهى اللطف معنا ، لقد احضر العقيد معاطفتنا وبذلك انقلدنا من التهاب رثوى بعد ان تحايل للحصول عليها بغير الايصالات التي كانت قد تركت مع المتاع في بنغازي . . ان كل ما نريد تبين انه في بنغازي .

لقد وصل « شيك » من جريدة « التيمز » للحصول على فيلم « سيناو » . ورسالة من « الهيرالد » بخصوص صور « الجروبو » و « غدامس » ويعتقد صديقنا الطبيب ان المقالة

عن « غدامس » رائعة . . انه هو القادر على ان يحكم عليها بحق ، فقد ذهب الى هناك عدة مرات .

ولقد تناولنا الطعام مع الطبيب و « ديكى » امس ثم بدأنا مناقشة حادة عن انغام الطبول . فكنا نقرع فوق المائدة كل على حدة او كلنا معا ، حين تشتد المناقشة عن الاختلاف بين طبول القبائل . ومن حسن الحظ اننا كنا في حجرة الافطار فقد سبق ان ازعجنا رواد حجرة الطعام اثناء مناقشة مماثلة ، وقالت دورثى وكانت تواجه حجرة الطعام ، ان الضيوف يظنون ان هذا الفندق المحترم الهادى قد تحول الى مستشفى اعصاب ، وتظن احدى التزيلات اننا فعلا مجانين لأن الطبيب الضابط يحبسها بالعربية كلما قابلها .

سنسافر صباحا الى « ميلانو » بالقطار حيث نقضى الليلة ، تصوروا اننا نرى الجليد مرة اخرى ، ان هذا لا يهمنا كثيرا ، ولو خيرنا لآخذنا اى سفينة وعدنا في الحال الى افريقيا خصوصا الى ليبيا .

روما في ١٩ ديسمبر

أهلى الأعراء

يبدو ان بعض مقابلاتنا قد أثمرت قليلا مع من قابلناهم حتى الآن . فقد ارسلت لنا مسر « برستون » مجموعة من المقتطفات من « تريون باريس » وفي احداها من يصفنا بأننا « مغامرتان بشعر قصير » و « وكاتبات هاويات مستعدات لأى شىء في سبيل الاثارة » وكنا نحسب ان كل متاعبنا ستنتهى بمجرد عودة الامتعة ولكنها لم تنتهى على الاطلاق ، فقد اتصل بنا هاتفيا الأمر « استوتو » بعد عودتى من روما ليسأل عما اذا كنت قد وجدت كل شىء ، واقترح ان يرى الافلام لتعرض في عرض خاص في قاعة متحف المستعمرات ، واجبت بأن ذلك يشرفنا ولكن حتى الآن لم يتم تجميعها ، ولهذا بدأ يبحث عن مكان لعرض الافلام بعد قص الاجزاء غير الواضحة ، وربما نعرضها تحت اسم معين ، ولكن لا يوجد مكان بروما يقبل عرض فيلم بالانجليزية ولا توجد قاعة عرض افلام مماثلة ، لقد اخطرت الأمر « استوتو » بكل هذا : « لا بأس ، يمكنك ان تقضى علينا ما بها وهى تعرض وسنفهم انها تعرض صور فقط ، وعلى هذا فقد ذهبتا امس الى وزارة المستعمرات مع العقيد والسنير كاستيلي لنحصل على موافقتهم وموازرتهم المعنوبة .

وقد كنا في حالة توتر حين قدمنا المدير العام لعشرين او ثلاثين من الرسميين

بالوزارة ، وجلسنا في الظلام نلتحف معاطف الفراء ونحن ننتظر مصيرنا ، هل الصورة جيدة ؟ - هل هي رديئة ؟ كيف يستقبلها هؤلاء الرجال ؟ وبعد ان انتهى العرض ساد صمت رهيب لم يقطعه الا قشعيرتنا ، حتى وصلنا الى بعض الصور التي التقطتها « هيلين » في مدينة « طرابلس » وقت ان كنا هناك في الاحتفال ، بالدخول الى روما ، واستعراض الحاكم للفاشست . لقد سبق ان كتبت لكم كيف حصلت « هيلين » على احد الغلمان العرب ليحمل لها آلات التصوير وانها قد جثمت على شرفة « الميرمار » لتصوير العرض ، وكانت هذه الصورة ممتازة ، وألهم الله احدهم فصفق وانضم الآخرون للتصفيق ، ومال الأمر « استوتو » الى الامام قائلا « رائع جداً » فتنفسنا الصعداء واحسنا بالراحة ، ففتحنا المعاطف وجلسنا نرى بقية الصور ، وبالطبع كان بعضها رديئا ولكن البعض الآخر كان رائعا جداً جداً . والآن وقد رأى مضيفونا عملا واعجبوا به فقد اصبح ممكنا ان نذهب الى باريس لقضاء عطلة عيد الميلاد هناك مع السيد « برستون » - وهكذا نسافر غداً .

دورثي

ميلانو في ٢٢ ديسمبر

أهلي الاعزاء

اكتشفنا اننا نستطيع ان نوفر اجر سرير العطار بأن نقضى الليلة هنا ، واني لسعيدة ان فعلنا ذلك ، فقد قابلتنا مفاجأة لدى وصولنا الى الفندق ، اذ يبدو ان الطبيب الدكتور كان قد ابرق الى « باستون » بمكاننا فما كدت اخلع معطفى وقبعتى حتى دق الهاتف واعلن موظف الفندق ان « باستون » سيصعد الى حجرتنا ، لقد حضر من « البندقية » كل هذه المسافة - ليقول اهلا - ومع السلامة « كما حضر ايضا شخص يدعى « نالوتر » وهو احد اصدقاء « هيلين » وهكذا رغم محاولة توفير النوم بالقطار فقد تأخر وسنسافر اليوم .

وقد حضر الرجال الى المحطة لوداعنا وبوسائلهم استطاعوا ان يوفروا لنا مقصورة خاصة بنا ، ونرجوا ان يوقفنا الحظ فنحتفظ بها طول الطريق حتى باريس .

هل تدركون انه قد مضى الآن اربعة اشهر منذ غادرنا امريكا ؟؟ واني وهيلين قد اتممنا رحلة جديدة ، لعلها احسن رحلاتنا حتى الآن ، رحلة الى افريقيا المحبوبة ،

هل تدركون اننا سنجع الى الوطن في ظرف اسبوعين ؟ اننى شخصيا لا أكاد اتصور ذلك .

سرجع هيلين معى حتى ننتهى من هذا الكتاب .

والى اللقاء .

دورثى



المؤلفتان تحلمان بالعودة الى ارض ليبيا





ثمن النسخة

١٢٥٠ درهم